



مارك أرونسون
MARC ARONSON

مارينا بودوس
MARINA BODOS



قصة عن السحر، التوابل، العبودية، الحَرية، والعِلم

SUGAR CHANGED THE WORLD

ترجمة: فاطمة نعيمي

كيف غير

السكر العالم؟

SUGAR CHANGED THE WORLD

قصة عن السحر، التوابل،

العبودية، الحرية، والعلم

كيف غير
السكر العالم؟

SUGAR CHANGED THE WORLD

قصة عن السحر، التوابل،

العبودية، الحرية، والعلم

مارك أرونسون **مارينا بودوس**

MARC ARONSON **MARINA BODOS**

ترجمة: فاطمة نعيمي

مراجعة وتحرير

وليد الجعل **ساجد العبدلي**





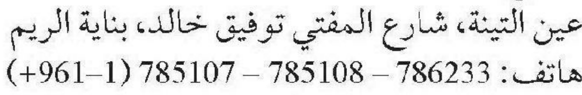
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Sugar Changed THE WORLD

A Story of Magic, Spice, Slavery, Freedom, and Science

الطبعة الأولى: 2018م – 1439ه

ردمك: 978-614-02-3506-9



facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb



الموقع الإلكتروني: www.darshafaq.com
الإيميل: info@darshafaq.com
تويتر: dar_shafaq
أنستغرام: darshafaqpublishing
هاتف: 0096522626067 – واتس آب: 0096599879377
العنوان: ص. ب. 55، العدان، دولة الكويت

التنضيد و فرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

إلى أولئك الذين عبروا البحار للاتجار بالسُّكّر

إلى الدكتور سيدني مينتز، الذي قادنا لرواية قصصهم.

قصب السكر، كما هو مبين في كتاب النباتات الطبية ل روبرت بنتلي وهنري تريمن (طبعة 1880).



قصب السكر، كما هو مبين في كتاب النباتات الطبية ل روبرت بنتلي وهنري تريمن (طبعة 1880).

(مكتبة دارلنغ للعلوم الحيوية، جامعة كاليفورنيا)

مقدمة

قصة تأليف هذا الكتاب

مارك

كان يومُ صيفي جافًّا في القدس. كنا نجلس أنا وماريا في الفناء الحجري الدافئ عندما علمتُ عن قصة عائلتي مع السُّكَّر، كان لي ابن عم يحكي أحيانًا شيئًا من تاريخنا الذي كان يحيرني دائمًا؛ تنحدر عائلة والدي من أوكرانيا، ثم كانت جزءًا من الإمبراطورية الروسية؛ حيث كان والده سليمان، الحاخام الكبير لكييف، هو الأحدث في سلسلة طويلة من الحاخامات التي تصل إلى عام 1300. كان سليمان حاخامًا يتطلع إلى الأمام، وساعد في بناء جسور بين الجاليتين: اليهودية والمسيحية. نقل جدي عائلتَه إلى تل أبيب؛ حيث أصبح واحدًا من قادة المجتمع اليهودي؛ بيد إن إحدى التغييرات التي لم يكن مستعدًا لها هو اختيار ابنه أفرام لزوجة – أفرام هو الابن البكر –، كان من المتوقع أن يصبح عمي حاخامًا أيضًا – تمامًا كالسبعة عشر ابنًا قبله.

خلال الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من أن أفرام كان محتجزًا في معسكر أسرى الحرب في ألمانيا، إلا إنه وقع في غرام مسيحية ذات عيون داكنة؛ وتزوجا بالرغم من اعتراضات والده الشرسة، طُرد أفرام من منزل والديه بسبب ذلك ولم يغفر له والده إلا في أواخر أيامه وهو على فراش الموت. كانت نينا دائمًا شخصية غامضة في الأسرة: جميلة وأنيقة كنجمة سينمائية، تتحدث الروسية فقط، على الرغم من أنها عاشت وقتًا طويلًا من حياتها في تل أبيب.

كانت هناك شائعات بأنها تنحدر من طبقة نبيلة وأنها كانت غنية جدًا، كان الناس ينظرون لها ولأفرام على أنهما الزوج اللامع، هو الرجل الساحر الذي وصل للغيوم)في لغة إيديش/ أو لغة يهود أوروبا الكلمة التي تدل على هذا المعنى هي لوفتمنش، وهي "رجل الهواء")، وهي المرأة ذات الجمال الغامض والتي تخلت عن كل شيء لتكون معه. كنت أحمل الكثير من الفضول فيما يتعلق بنينا، وكان لدى ابن عمي الكثير من القصص للمشاركة؛ فأخبرني أن جدَّها كان من العبيد الروس وهو مزارع يمكن للنبلاء الذين يملكون الأراضي شراؤه وبيعه.

تقول أسطورة الأسرة إن هذا العبد رجل رائع وذكي، ساعد على تغيير مسار تاريخ السكّر. في أوائل القرن التاسع عشر، كان البريطانيون يسيطرون على معظم مزارع السكر في منطقة بحر الكاريبي والطرق البحرية إلى أوروبا؛ ونتيجة لذلك، كان منافسوهم يبحثون عن طريقة لإيجاد مصدر

جديد لصنع السكر؛ فتحولوا إلى الشمندر.

نحن لا نعرف بالضبط ما فعله جدُّ نينا؛ ولكن تقول القصة، إنه وجد طريقةً لمنح سكر الشمندر الخام شكلًا متألقًا؛ فأصبح بإمكان الجميع بَدءًا من روسيا إلى مقاهي فيينا شراءُ السكر الرخيص والجذاب والذي تم إنتاجه في التربة الأوروبية. لم يكن لدى العبيد بطبيعة الحال أي خيار حول مكان سكنهم أو عملهم؛ لكن جد نينا قام بجمع الكثير من المال الذي يكفيه لشراء حريته من صاحبه، واستمر بالعمل إلى أن أصبح غنيًّا، لدرجة أنه لم يكتف بشراء قطعة من الأرض على نهر الفولغا؛ ولكن بتزويج ابنته من أحد النبلاء والذي يملك الأراضي المتبقية الممتدة على النهر؛ فشكّلا معًا إمبراطورية صغيرة، وسيطرا على جزء كبير من هذا الممر المائي المهم، وأصبحوا أول عائلة في المنطقة تشتري سيارة.

لسوء الحظ، كان الرجل النبيل قاسيًا جدًّا مما دفع والدة نينا للهرب في نهاية المطاف من زواجها، ذهبت إلى القيصر، طالبة إلغاء الزواج؛ فأوضح لها أنه في ظل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ليس هناك طلاق، ومع ذلك، إذا دفعت ما يكفي من المال، سيسمح لها ولابنتها بمغادرة روسيا، وبذلك هاجرت ابنة مخترع السكر إلى برلين مع نينا الصغيرة تحمل الماس والذهب الذي فقدته خلال الحرب العالمية الأولى. كل ما تبقى من تلك الثروة كانت ماسة واحدة، كانت نعومي، ابنة نينا، تحتفظ في درج في منزلها.

مارينا

بالنسبة لي، بدأت قصة السكر في منزل أبيض في منطقة بحر الكاريبي.

منذ أن كنتُ طفلة صغيرة، سمعت عن منزلنا في غيانا. كان جميلًا، مربعًا أبيض طويلًا مع سلسلة من النوافذ المظلّلة، مثل جميع المنازل في المنطقة، ولأن الأرض تتأثر بسهولة بالفيضانات، بُني المنزل على ركائز رفيعة؛ ويتبختر الدجاج في أسفله. الأثاث الداخلي مستورد من بولندا، والأرضيات خشبية ولامعة؛ كانت عماتي تحتفظ في الخزائن بالذهب والياقوت والماس والمجوهرات، وثيابهن الفاخرة المخيطة يدويًّا والأكثر تعقيدًا من الثياب العادية التي ترتديها نساء القرية.

وقد جاء أجدادي من الهند إلى غيانا، ثم غيانا البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر للعمل في مزارع السكر، الذي كان العمود الفقري للإمبراطورية البريطانية في ذلك الوقت، كان الطلب عليه كبيرًا، لأنه كان قد أصبح ضرورة وليس ترفًا يحتكره الأغنياء لأنفسهم فقط. حتى أنَّ أفقر الناس يضيفون السكر للشاي.

تم إلغاء الرق في الإمبراطورية البريطانية في عام 1833، أي قبل ثلاثين عامًا من إعلان التحرر في الولايات المتحدة؛ ولكن حتى بعد تحريرهم من العبودية، كان أصحاب مزارع السكر يحرصون على البحث عن عمالة رخيصة لقطع قصب ومعالجته، وهكذا، كان البريطانيون يتطلعون إلى جزء آخر من الإمبراطورية الهندية، فوظفوا الآلاف من الرجال والنساء، الذين مُنحوا عقودًا

للعمل لمدة خمس سنوات. وقد كان الذهاب خارج الهند بالنسبة لهندي يعد أمرًا صعبًا؛ لأنه بمجرد عبور "المياه السوداء" للمحيطات المحيطة، لن يعود لديك أي مكان في قريتك، ولن يمكن قَبول عودتك إلا بعد القيام بطقوس معينة؛ فترك الهند يعني التخلي عن منزلك؛ لكنه كان بالنسبة لبعض أفراد عائلتي فرصتهم الوحيدة للحصول على حياة أفضل.

كان البيت الأبيض المملوك لعائلتي مهرَ جدتي، وهي امرأة شابة، خفيفة الوزن، تنحدر من عائلة كانت قد ازدهرت في ظل نظام المزارع البريطاني. تم بناء المنزل في قرية صغيرة في الزاوية الشرقية من غيانا، ليست بعيدة عن الحدود مع ما يعرف الآن بسورينام. كان لدى الأسرة بعض الأراضي والخدم، وكان والدي يتحدث عن القنوات التي يصطاد فيها الجمبري. تم اختيار جدي الأكبر ليكون "سردار" أي المسؤول عن الحقل، وبعد انتهاء عقده اشترى الأرض وازدهر. كان هذا هو السبب وراء تركه لهذا المنزل والمهر الكبير لابنته عند زواجها من جدي، الذي بدوره شغل أيضًا مواقع جيدة في العديد من المزارع.

وقد عُدَّ قراره بتزويج أبنائه في الكنيسة بحيث يتحولون جميعًا للديانة المسيحية بأنهم "فوق" القرويين الآخرين. كانوا عائلة تتحرك صعودًا، خاصة الأولاد، الذين كانوا طلابًا متفوقين، والفتيات يرتدين فساتين على النمط الغربي، كانت الأسرة تتناول الأطعمة المستوردة مثل المرملاد (مربى مصنوع من قشور الحمضيات) والسردين المعلب، ولم يكن من المتوقع أن يعمل الأولاد في الحقول. أصبحت إيلين مبشّرة، وهي امرأة حادة وشديدة تقوم بالتدريس في مدرسة الأحد المحلية. حصل والدي في نهاية المطاف على منحة دراسية في الولايات المتحدة في جامعة هوارد، التي كانت توظف طلابًا من جزر الهند الغربية، وأصبح معلمًا.

حتى عندما أصبحت الحياة صعبة، عندما كان أخوة والدي الأكبر سنًا يواجهون المشاكل وتقطعت بعمّاتي السبل في شيخوختهن وأخذ أهل القرية الذين كانوا ينظرون إليهم بفوقية يعتنون بهم، بقيت العائلة متمسكة بهذا البيت، يتحدث أفرادها عن اليوم الذي سنرثه فيه أنا وأخي، رمز فخرهم في مستعمرة بريطانية صغيرة مبنية على تجارة السُّكر.

في نهاية المطاف، زرت غيانا لمعرفة مصير منزلنا، وبينما كانت سيارتنا تمر بجانب مباني السكر القديمة، رأيت النخيل المنحنية أمام السماء الفسيحة، والعشب الخصب النامي في صفوف سميكة لامعة، والقرى والأراضي المحيطة بالممتلكات المهمة، وأدركت حينها أن السكر كان السببَ الأساسَ لوجود هذا البلد. كان يظهر بين حين وآخر منزل قديم تتم فيه معالجة القصب وتحويله إلى بلورات ودبس وشراب. تظهر المنازل القديمة على المشهد المسطح مثل شبح ضخم.

علمنا بمجرد وصولنا أن منزلنا لم يعد لنا منذ فترة طويلة، وأنه تم بيعه قبل وقت قصير من وفاة عمتي، وتم بناء ورشة لتصليح السيارات في مكانها، وكانت الخرسانة وبعض السباكة القديمة وتاريخٌ ينتظر أن يقال هو كل ما بقي منه.

الماس والمنزل: اثنان من كنوز الأسرة، جزآن من قصة السكر. لقد أدركنا أن قصصنا

العائلية – قصة أسرة مارينا التي أوتي بها إلى غيانا لتحل محل العبيد، وقصة جد زوجة عم مارك الذي ساعد على صقل بديل للسكر نفسه – كانت بداية لقصة أكبر بكثير عن مادة مؤثرة، إنها قصة عن حركة الملايين من الناس، وعن ثروات تم كسبها وفقدها، عن القسوة والفرح؛ كل ذلك بسبب بلورات صغيرة تحلّي قهوتنا، منثورة فوق كعكة. من هنا بدأنا نرى كيف غيّر السكر العالم.

عصر العسل

هناك زمن لم يكن فيه وجود لتلك الحبوب البيضاء التي تذوب على لسانك في أي مكان على الأرض، يمكن للمؤرخين التحدث عن العصر الحديدي والعصر البرونزي، حيث كانت المعادن تستخدم في صنع الأسلحة والأدوات، أما بالنسبة لنا فيمكننا أن نتحدث فقط عن العدة آلاف سنة الأولى كونها عصر العسل.

وجدت في إسبانيا رسومًا حجرية تعود إلى حوالي 7000 قبل الميلاد؛ يظهر فيها رجل يتسلق تلًّا، يجد خلية نحل ويشقها، ويصل إلى العسل. في الواقع، كان يمكن لأي متجول محظوظ في أي جزء من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا التي لم تكن مغطاة بالجليد أن يعثر على خلية نحل، ويمكنه عند إصابته ببعض اللسعات إيجادُ العلاج المناسب. (لم يكن لدى الناس في الأميركتين أي نحل، لذلك استخدموا شرابًا من أشجار القيقب أو الصبار أو الفواكه المهروسة كمُحليات)، ثم اكتشف شخص ما أنه لم يكن عليك أن تكون محظوظًا كي تحصل على العسل، وكل ما عليك هو عمل حفرة في جذع شجرة بالقرب من النحل، وسوف يستوطنها.

كان الناس في عصر العسل يتذوقون الحي الذي يعيشون فيه، بدءًا بالنكهة الخفيفة للعسل البرتقالي الذي يكون أشبه بعطر ما، إلى الحنطة الداكنة المنكّهة بلمحة من التربة والحبوب. يشبه العسل في طعمه الزهور المحلية. ويعمل النحل بجد، ومن السهل أن نرى النحلةَ الملكةَ محاطةً بنحلٍ عامل يحميها ويخدمها. بالنسبة للقدماء، كانت خلية النحل مثالية؛ لأنها جلبت هدية من حلاوة للناس، ولأنها تعمل كمرآة تعكس حياتهم؛ حيث الملك أو الملكة التي يخدمها الموالون.

كان العسل وسيلةً للعيش؛ فالناس يأكلون الأطعمة التي تُزرع بالقرب منهم، ويواصلون عمل آبائهم وأجدادهم نفسه، ويدينون بالولاء والاحترام للملوك والنبلاء. ولأن النحل بدا نموذجًا للطريقة التي يجب أن يعيشها البشر، نظر إليه الشاعر الروماني فيرجيل على أنه يحمل شرارة من الآلهة: يقول بعضهم إن النحل أعطي حصة من الذكاء الإلهي.

يختلف السُّكر عن العسل؛ فهو يقدم نكهة أشد حلاوة، وهو مثل الصُّلب أو البلاستيك، كان لا بد من اختراعه. اشترى الأوروبيون في عصر السكر منتجًا تم صنعه على بعد آلاف الأميال، وكان أقل تكلفة من العسل. حدث ذلك فقط لأن السكر وضع الملايين من الناس في حركة مستمرة في جميع أنحاء العالم كعبيد مقيّدين في سلاسل، وعددًا قليلًا منهم كباحثين عن ثرواتهم. لقد أنتج العملُ الأكثر وحشية الطعمَ الحلو للسكر: هذا هو الجانب المظلم من قصة السكر؛ ولكن هناك قصة أخرى أيضًا: انتشرت المعلومات المتعلقة بصنع السكر عندما تبادلت الحضارات والثقافات العظيمةُ الأفكارَ.

في الواقع، في حين أن السكر هو السبب المباشر لتوسيع تجارة الرق؛ فإن الروابط العالمية التي أثارها السكر قد عززت أيضًا أقوى الأفكار المتعلقة



بحرية الإنسان. يحمل السكر طعمًا نريده جميعًا، وحلاوة جعلت الناس في جميع أنحاء الأرض على استعداد للقيام بأي شيء على الإطلاق، للحصول على شيء منها.

نعرف كم هي مثيرة تجربة تذوق السكر للمرة الأولى؛ عندما التقت البعثتين الاستكشافيتين للأمريكيين لويس وكلارك في رحلتهما مع الشوشون (قبيلة من قبائل الهنود الحمر)

الذين لم يسبق لهم أن خبروا شيئا من منتجات العالم القديم، قدمت ساكاجاوي (هندية من الشوشون كانت ترافق البعثة) قطعة صغيرة من السكر لرئيس القبيلة، فأحب ذلك، ليعبّر قائلًا إنه "أفضل شيء تذوقه في حياته".

خلق اكتشاف السكر حالة من الجوع، وحاجة انتقلت من زاوية من العالم إلى أخرى، ناقلة ذات البؤس والدمار الأكثر فظاعة؛ لكنها خلقت بعد ذلك معظم الأفكار الملهمة للحرية.

السكر غيَّر العالم.

نبدأ تلك القصة مع رجل لا يمكن أن يكتفي بما يعرفه.

الفصل الأول

من السِحر إلى التوابل

وقف الإسكندر الأكبر في عام 326 قبل الميلاد على نهر اندوس والذي أصبح اليوم باكستان. على مدى عشر سنوات كان هو وجنوده اليونانيون يقاتلون عبر العالم، تمكنوا خلالها حتى من هزيمة الفرس الأقوياء، حكام آسيا آنذاك. نجحت سلسلة انتصارات الإسكندر في تغذية تعطّشه لقهر كل شيء، ولمعرفة كل شيء؛ ولكن رجاله المتعبين من القتال، والمشتاقين إلى الوطن، يرفضون المضي قدمًا؛ ويدرك الإسكندر أنه لا يمكنه أن يستمر بالمطالبة بآسيا؛ ولكن من الصعب عليه التوقف عن الاستكشاف؛ لذلك قام ببناء أسطول مكون من 800 سفينة، وعيَّن صديقه المقرب نيارخوس قائدًا عليه، وأرسلهم لاستكشاف ساحل الهند عن طريق البحر

وكان نيارخوس هو من عثر على ‘‘القصب الحلو’’.

عرف الإغريق شيئًا عن الهند (في الواقع شبه القارة الهندية، هي المنطقة التي تضم اليوم الهند وباكستان) من كتب هيرودوت، وهو كاتب عاش قبل ذلك بقرن من الزمان. وأفاد بأنه عندما غزا الإمبراطور الفارسي داريوش الأول الهند حوالي 510 قبل الميلاد، وجد رجاله القصب الحلو الذي أنتج العسل، – وهو على الأرجح قصب السكر –، وهو قصب رقيق طويل القامة يشبه الخيزران، ذو لحاء خشبي ملحوظ، داخل النبات سائل حلو المذاق، يمكنك عبر عصره بين أسنانك أن تذوق العصير، ويمكنك حتى يومنا هذا أن تجد أكوامًا من قصب السكر في الأسواق الاستوائية، تقدم للمشترين نباتًا منعشًا في مكان ما بين الحلوى وشراب للطاقة.

عندما أبحر نيارخوس، وجد أيضًا ‘‘القصب الذي ينتج العسل’’، وعلى الرغم من عدم وجود النحل؛ كان اليونانيون سعداء بالتعرف على قصب السكر؛ لكنه كان مجرد حقيقة أخرى مثيرة للاهتمام يتعلق بالعالم الطبيعي، كبطاقة بريدية تسرد تفاصيل رحلة صيفية شهدتها الأسرة مؤخرًا، لم يتصور أحد أن ذلك ‘‘القصب’’ من شأنه أن يضع حدًّا للعالم الذي يملأه طنين عصر العسل.

الآلهة والطقوس

يمكن نسب اكتشاف قصب السكر إلى الجزيرة التي تسمى الآن غينيا الجديدة، التي تقع شمال أستراليا. وعلى الأرجح أن البشر قد زرعوا القصب في هذه الجزيرة بحوالي خمسة آلاف سنة أو أكثر قبل الإغريق.



في البداية، كان قصب السكر ببساطة من النباتات البرية التي تحمل مذاقًا جيدًا، ثم عرف الناس كيف يزرعونه، تمامًا كما تعلموا كيفية زراعة أشجار التفاح أو شجيرات التوت. انتشرت من غينيا الجديدة أخبار النبتة ذات المذاق الحلو ببطء شمالًا إلى البر الآسيوي، وأخذ البحارة البولينيزيون (بولينيزيا هي أرخبيل جزر في المحيط الأطلسي) أيضًا قصب السكر معهم وهم يبحرون من جزيرة إلى أخرى حتى وصلوا إلى هاواي حوالي 1100

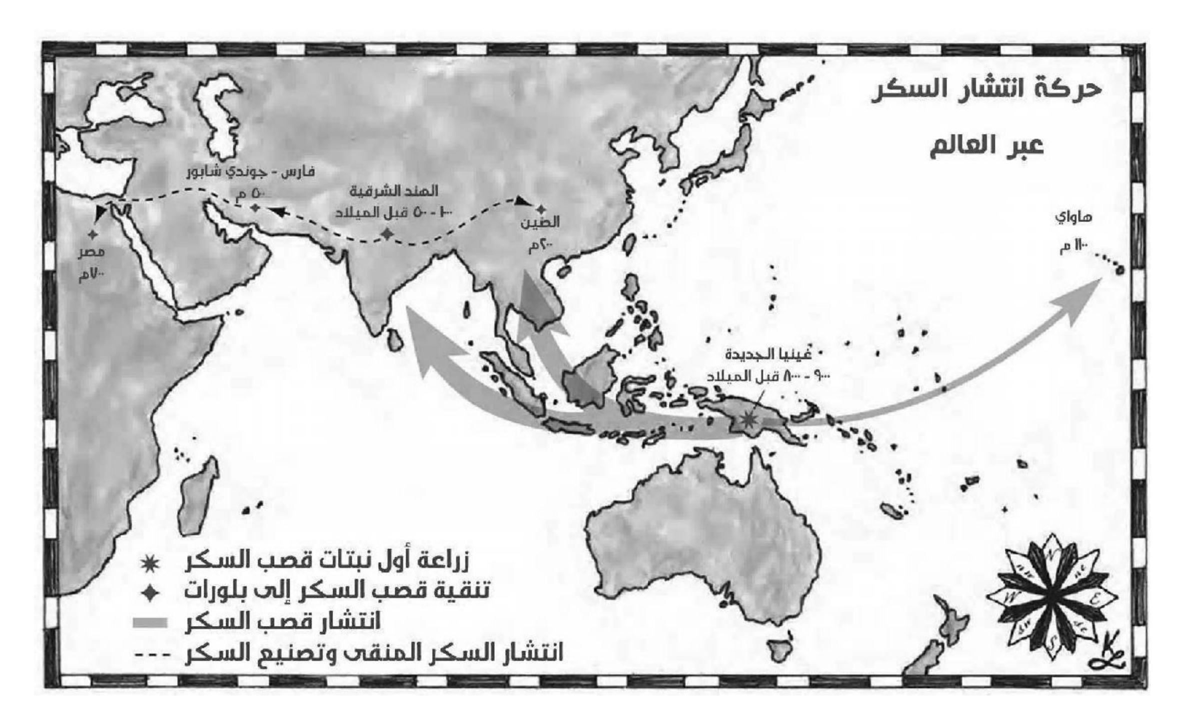
للميلاد، ولكن أول سجلّ مكتوب عن السكر هو في الهند، حيث كان يستخدم قربانَ شكر في الاحتفالات الدينية والسحرية.

قبل فترة طويلة من بناء الأهرامات الأولى في مصر، تداول السومريون القدماء مع شعب هارابا وموهينجو دارو، الذين عاشوا على طول نهر اندوس. ولسوء الحظ، ما زلنا غير قادرين على قراءة الكتابات التي خلفوها في تلك المدن القديمة؛ لذا فإن الوثائق الأولى التي تتحدث عن الحياة في تلك المنطقة تأتي من فترة لاحقة.

تم جمع هذه التعاليم الهندوسية المقدسة في وقت ما بين 1500 و900 قبل الميلاد، وتم حفظها بعناية، وتمت كتابتها أخيرًا بعد بضع مئات من السنين فقط. تخبرنا الكتابات الهندوسية عن دين كان للنار فيه أهمية بالغة؛ حيث كان معتنقوه يعتقدون أن الآلهة منحت البشرَ النارَ؛ ولكن في الوقت نفسه كانت النار أيضًا وسيلة البشر للوصول إلى الآلهة؛ حيث يمكن للكاهن تحويل القرابين عن طريق وضعها في النيران إلى دخان وإرسالها إلى الآلهة، وتم اختيار خمسة مكونات لهذا الحرق الخاص، وهي: الحليب، والجبن، والزبدة، والعسل، وقصب السكر.

تتحدث أثارفا فيدا – وهي واحدة من هذه الكتابات الهندوسية المبكرة – عن قوس مصنوع من قصب السكر الذي يتم زرعه بشكل دائري كسور حلو لحماية المحبوب، كما يتضمن تعليمات محددة حول كيفية استخدام قصب السكر. ولغرض التعبد وطلب المساعدة من دورغا – الإلهة الأكثر أهمية –؛ يستلقي الفرد ويواجه وعاء النار ذا الزوايا الثلاث، ثم يمكنه وضع قرابينه الخاصة في أثناء تلاوته الكلمات المقدسة.

أصبح قصب السكر عنصرًا في الاحتفالات التي تشتمل على النار؛ وربما أن الكاهن لاحظ بعد إقامة العديد من هذه الطقوس أن عصير القصب إذا تم غليه لوقت طويل وبشكل صحيح يتبلور ويتحول لكتلة بنّية داكنة، لعل هذا التحول يبدو بحد ذاته سحريًا؛ سائل ساخن يتحول إلى شيء يشبه رملًا داكنًا. في أثارفا فيدا، يسمى قصب السكر إكشو، وهو ما يعني "شيء يريده الناس، أو الرغبة، بسبب حلاوة مذاقه"؛ ولكن بعد أن تعلم الناس كيفية صنع بلورات السكر، بدأوا في استخدام اسم شاركارا، ويعني "الحصى".



وعلى الرغم من أن الهنود استخدموا السكر في الطقوس، إلا إنهم لم يمتنعوا عن التمتع بتناول قطع من قصب السكر – كلمة "قطعة من السكر" في اللغة السنسكريتية القديمة هي خاندا، وهي كلمة مرت عبر الفارسية إلى العربية ومنها إلى أوروبا، وأصبحت كاندي (حلوى بالإنجليزية) –. وكان للسكر استخدام ثالث في الهند القديمة، ألا وهو الدواء. نقول اليوم: "ملعقة من السكر تساعد على تقبل مرارة الدواء"، ولكن بدءًا من العصور القديمة وحتى وقت قريب جدًا، كان السكر نفسه يعد وسيلة للشفاء، وعليه جاءت الخطوة التالية في انتشار السكر من خلال جامعة كانت بمثابة مفترق في طريق المعرفة في العالم.

(يوجد هنا كلام للصورة)

أول جامعة حقيقية في العالم

قلة من الناس في يومنا هذا سمعوا عن جامعة جوندي شابور؛ ولكنها فيما مضى كانت جامعة استثنائية،

تم إنشاؤها في المنطقة التي تسمى الآن بإيران بين عامي 400 ومنتصف 500 بعد الميلاد – يمكننا هنا تخمين التواريخ فقط ولكننا نعرف الكثير عن المدرسة –. كانت الجامعة مكان اجتماع العقول الكبرى في العالم؛ حيث أغلق



المسيحيون مدرسة أثينا في عام 529، وهي الحلقة الأخيرة لأكاديميات سقراط وأفلاطون وأرسطو؛ فانتقل بقية العلماء اليونانيين إلى جامعة جوندي شابور،

وانضم إليهم اليهود، بالإضافة لمجموعة من المسيحيين يُدعَون النسطوريون – وهم مسيحيون لديهم تقاليدهم القديمة والعلمية الخاصة بهم – كما أضاف الفرس أصواتهم، وانطلق أحد أطبائهم إلى المنطقة التي تمثل الهند حاليًا لجمع حكم الهندوس وترجمتها. أنشأت هذه المدرسةُ أولَ مستشفى تعليمي في العالم، وهو المكان الذي يعالج فيه المرضى، ويتعلم الأطباء الصغار حرفتهم فيه، فضلًا عن مرصد دقيق لتتبع الأجرام السماوية. واجتمع أيضًا في جوندي شابور أفضل علماء غرب الصين للتفكير والدراسة.

بحلول عام 600م، كان الأطباء في المدرسة يكتبون عن دواء آتٍ من الهند اسمه شاركارا، أو كما دعاه الفرس: شَكَر. في الواقع، اخترع العلماء في جوندي شابور طرقًا جديدة وأفضل لتحويل القصب إلى السكر؛ كوْن الجامعة لديها روابط مع العديد من الحضارات الكبرى في آسيا والبحر الأبيض المتوسط، وأوروبا. بدأت كلمة سُكَّر وتجربة تذوق الحلاوة الخاصة تنتشر؛ ولكن لا يعني هذا أن الناس كانوا يخبزون الكعك المحلى والمزيَّن بطبقة سكّرية.

نحن اليوم نفكر بالأطعمة الحلوة بشكل مختلف تمامًا عن تلك المالحة؛ فنحن نأكل الفاكهة في وجبة الإفطار، ونأكل اللحوم كطبق رئيسٍ، وعادة ما يكون في وجبة الغداء أو العشاء؛ ولكن في تلك الأيام، عندما كان الناس يستخدمون الفاكهة والعسل والسكر لتحلية الأطعمة، فإنهم غالبًا ما كانوا يخلطون الأطعمة المالحة أو حتى المرّة مع تلك الحلوة، وهو ما زلنا نفعله في بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال، عند تحضير نبز الزنجبيل يمزج الزنجبيل مع السكر والقرنفل وجوزة الطيب،

وواصلوا ذلك لمدة ألف سنة أخرى. ولكن عالم السكر كان ينمو بسرعة كبيرة، وانتشر بسبب

عاصفة – عكس أي عاصفة حلت بالعالم في أي وقت مضى –: عاصفة الإسلام.



وقد يُغطى اللحم بطبقة حلوة المذاق، كما تمتاز أطباق عيد الشكر التقليدية باحتوائها على الديك الرومي وصلصة التوت البري، وتمتاز هذه الأطعمة التي يتم تحضيرها في أيام المناسبات باتباعها للوصفات القديمة في تحضيرها.

عندما بدأ السكر في الانتشار من الهند، وبلاد فارس، واليونان، ومدرسة جوندي شابور العظيمة، كان الطهاة الذين يعملون عند الأغنياء يتعاملون معه كونه من التوابل، وذلك بمزجه مع النكهات الأخرى؛

عاصفة الله

عندما بدأ النبي محمد ﷺ رسالته في عام 610م، لم يجذب سوى عدد قليل من الأتباع؛ ولكن في الوقت الذي مات فيه في عام 632، انتشر إيمانه في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وبحلول عام 642، وصلت جيوش المسلمين إلى جميع أنحاء سوريا والعراق وأجزاء من إيران ومصر، ومن هناك، انتشر الإسلام عبر شمال أفريقيا على طول البحر المتوسط، وأكثر من ذلك إلى فرنسا. انتهت مسيرة الإسلام إلى أوروبا في عام 732، عندما هزم الفرنسيون الجيوش الإسلامية في معركة بواتييه. ولكن هذا ليس كل شيء، فقد أخذ الحكام المسلمون أراضي الإسكندر القديمة في أفغانستان، ومن هناك، اجتاحوا شمال الهند. اختارت القبائل الوثنية في آسيا الوسطى الإسلامَ عن طريق التحول أو الفتح، انتشر الإسلام، دين محمد ﷺ، تقريبًا في جميع أراضي العالم القديم: مصر، وبلاد فارس، والهند، وحوض البحر الأبيض المسيحي. كان العالم الإسلامي الشاسع رائعًا لنمو المعرفة، وكان الإغريق آنذاك قد تمكنوا من تطوير مستوى من الخبرة العملية والفهم التقني المتفوق بآلاف السنين عمن حولهم؛ ولهذا بدأ المسلمون بترجمة بعض من هذه النصوص اليونانية القديمة. وعلم المسلمون عن الصفرَ من الهند الأمر الذي سمح لهم باختراع ما نطلق عليه اليوم الأرقام "العربية". ولأن القرآن الكريم – الكتاب المقدس للإسلام – مكتوب باللغة العربية، تعلم العلماء في جميع أنحاء العالم الإسلامي قراءة اللغة العربية وتبادلوا معارفهم. اجتاح المسلمون جوندي شابور وتعلموا أسرار السكر، ولأنهم غزوا الأراضي حول البحر الأبيض المتوسط فقد نقلوا كيفية زراعة القصب الحلو

وصقله، وبدأ المسلمون باستخدامه بشكل أكثر ترفًا وفخامة؛ حيث قاموا بالجمع بين السكر واللوز والذي ما يزال مستخدمًا إلى يومنا هذا ويسمى المرصبان (معجون اللوز). قام الطهاة الذين كانوا يخدمون المسلمين الأثرياء بابتكار منحوتات من السكر قابلة للأكل، حيث شغل أحد الملوك المسلمين طاولة وليمته بسبعة قصور كبيرة مصنوعة من السكر، بينما عرض حاكم آخر شجرةً كاملة مصنوعة من السكر. لقد كان السكر ترفًا يرتبط بالمسلمين، وعلامة على ثروة وسخاء السلاطين والملوك الإسلاميين.

مع صعود وانتشار الإسلام، أصبحت مصر مختبرًا كبيرًا للسكر في العالم، وكان أسهل نوع يمكن صنعه من القصب هو السكر الداكن، حيث يأتي اللون من دبس السكر، والذي يجعل أيضًا مذاق السكر أقرب للمرارة. وما نسميه دبس السكر ليس سوى جزء طبيعي من الطحن الأول لقصب السكر لتحويله إلى شراب. تقوم مصانع السكر بتصفية دبس السكر الداكن لاستخدامه على حدة، بينما يكون السكر الأبيض نسبيًّا من نصيب النبلاء والأثرياء الذين أرادوه نقيًا، وحلو المذاق، وناصعًا قدر الإمكان، وقد عرف المصريون كيفية تلبية هذه الحاجة لمن كانوا قادرين على دفع تكلفته.

كان المصريون يقومون بسحق القصب والحصول على العصير، ثم يقومون بغلي السائل، وتصفيته، وتركه ليستقر، ثم يقومون بتصفيته مرة أخرى. بعد ذلك يصبون عصير القصب في قوالب مثقوبة القاع، بحيث يمكن تصريف السائل، وترك المسحوق فقط، ثم يتم خلط هذا المسحوق مع الحليب وغليه مرة أخرى، وبعد إتمام جولة كاملة من هذه الخطوات، يتم تكرار العملية مرة أخرى؛ ونتيجة لهذا الجهد، صارت مصر معروفة بإنتاج "أرقى وأنقى" أنواع السكر.

كان عالم السكر مرتكزًا على البحر المتوسط الإسلامي؛ لكنه امتد أيضًا إلى الصين من الشرق وحتى أوروبا إلى الشمال. زار ماركو بولو إمبراطورية كوبلاي خان في 1280م،



وأفاد بأنه على الرغم من أن الصينيين يعرفون كيف يزرعون قصب السكر وينتجون السكر البني منذ أكثر من ألف عام، إلا إن رجالًا من مصر هم الذين اكتشفوا كيفية صنع السكر الأبيض المُبهِر بطعمه. في الوقت الذي كانت المعارف الجديدة تنتشر في العالم الإسلامي ويستوعبها أهلها، ويتمتعون بالمذاق الحلو للسكر، كانت أوروبا تذهب إلى الاتجاه المعاكس: العُزلة.

حصن أوروبا

تخيَّل وليمة في قلعة من القرون الوسطى؛ ومن المؤكد أنه سيكون عليك التخمين؛ لأنه لم يكن هناك كتب طبخ في أوروبا المسيحية حتى عام 1100م، ولماذا كان ينبغي أن يكون هناك كتب أساسًا؟ لم يكن لدى الطهاة أي سبب وجيه لتعلّم القراءة أو الكتابة؛ إذ يمكن للأمراء الأغنياء تناول اللحوم، أما الفقراء فيكتفون بالخبز. عندما كان أحد الأثرياء يقيم وليمة، كان يقدم اللحوم على الخبز، بدلًا من استخدام الصحون، كان المدعوون يتناولون الطعام من الصواني التي كانت عبارة عن خبز قديم. منذ عام 400م عندما بدأت الإمبراطورية الرومانية بالانهيار، زاد العنف، والجهل والانقسامات في أوروبا بشكل كبير.



بعدما درس المسلمون كلمات الإغريق القدماء، عاد معظم الأوروبيين إلى العد على أيديهم، وكان عدد قليل منهم فقط يعرف القراءة، باستثناء بعض التجار الباحثين عن الأعمال التجارية، لم يهتم أحد بالمعرفة، كان العالم الخارجي مجرد أرض بعيدة، ومع ذلك يمكننا أن نقول إن الجميع – الأغنياء والفقراء – أحب نكهة التوابل في طعامه، والذوق الذي قد يعود إلى العصر الروماني؛ وعلى الرغم من أن كتابًا تلو الآخر يكرر هذه الأسطورة؛ إلا إن شعبية التوابل لا علاقة لها بتمويه طعم اللحوم أو الأسماك غير المستساغة؛ لأن أي شخص كان يمكنه تحمل تكلفة التوابل (التي كانت باهظة الثمن)

كان بإمكانه أيضًا الحصول على اللحوم الطازجة أو الأسماك (التي كانت متاحة بسهولة)، عندما يكون طاه ما عالقًا مع مكوّن زنخ فلن يكون بإمكان التوابل حينها إخفاء رائحة أو طعم سيئ.

استخدم الناس التوابل التي كانت شعبية جدًا كلما استطاعوا إلى ذلك، وأصبحت توابلُ كالفلفل، والزنجبيل، والسكر وأحيانًا الزعفران ضروراتٍ باهظةَ الثمن، يمكن للغني جدًا فقط تحمل

تكلفة الكماليات، مثل العنبر – الذي يتم استخراجه من الحيتان ويحوي مذاقًا ونكهة بحرية غريبة –. في عام 1100م، بدأ أغنى الأوروبيين بإضافة المزيد من النكهات لطعامهم، بسبب خوض الحروب والتعرف على الأسواق. وبقرار ذكي، ضمنت منطقة شامباني في فرنسا سلامةً أي تاجر قادم للبيع أو التجارة في الأسواق في أراضيها، وبانتشار هذا الخبر ازدهرت الأسواق، وابتداء من عام 1150، أصبحت الأسواق الستة في شامباني المكان الوحيد الذي يمكن فيه للأوروبيين شراء المنتجات وبيعها من العالم المحيط، وهي الخطوة الأولى لربطهم بالثروات والأذواق الخارجية، وبهذا بدأ حصن أوروبا بالانفتاح ببطء.

معارض شامباني التجارية

كانت المعارض في منطقة لاني سور مارن – بالقرب من باريس – تبدأ في كانون الثاني/ يناير، يأتي إليها تجار من شمال أوروبا الباردة لمدة شهرين لإتمام الصفقات التجارية مع رجال أعمال من إيطاليا الدافئة. وواحدة تلو الأخرى، عقدت خمس مدن فرنسية أخرى هذه المعارض، حتى نهاية العام في ترويه في شهر ديسمبر، ثم تبدأ الدورة مرة أخرى.



في عام 1420 كتب رئيس طهاة من المنطقة المسماة حاليًا إيطاليا أن رأس خنزير بري مثل هذا يجب أن يكون أخضرًا مغطىً بصلصة محضّرة من البقدونس، ومغطّى بالذهب من جهة أخرى. أراد نبلاء القرون الوسطى أن يكون طعامهم عرضًا فخمًا من الألوان، والروائح، والمؤثرات الخاصة كجعل مادة غذائية تبدو مادة أخرى. كانت التوابل باهظة الثمن قادمة من الشرق الغامض؛ مما جعلها جزءًا ضروريًّا من مأدبة النبلاء. عُدَّ السكر من التوابل، إن لم يكن أندرها وأغلاها. هذه الصورة منقولة من إحدى الكتب الحديثة التي تستنسخ بأمانة وصفات القرون الوسطى. (كلود هيغنز)

كانت المعارض جيدة التنظيم؛ إذ تم إنشاء صالات عرض مسقوفة بحيث يتمكن التجار من إتمام عمليات الشراء والبيع حتى في حال هطول المطر، حيث كانت الأقبية كبيرة جدًا تشبه مدن تحت الأرض. وثق التجار بالتدابير والتنظيم الصارم فيما يتعلق بالعمليات التجارية، حيث يمكن للتاجر أن يبيع في الاثني عشر يومًا الأولى القماش المنسوج فقط – وهو ما جلبه التجار من شمال أوروبا –، ثم يبدأ رجال الأمن بالتجول في الشوارع معلنين انتهاء فترة بيع القماش، وتبدأ بعدها فترة تجار الجلود الذين جاءوا من إسبانيا، وتجار الفراء القادمين من روسيا.

عرض التجار الذين قدموا من إيطاليا البضائعَ التي اشتروها من المسلمين، والتي لم تكن متوافرة في أوروبا: الفواكه مثل البرتقال والمشمش والتين، والأصباغ مثل القرمز الأحمر الغني، والأقمشة النادرة مثل القطن والحرير الخام، والعديد من الأقمشة التي نعرفها اليوم قد وصلت إلى أوروبا عن طريق المسلمين، ولا تزال أسماؤهم تظهر أصولهم: فحرير الدمقس من دمشق، والنسيج الموصلي من الموصل، والشاش المسمّى غزّي (Gauzes) من غزة. وقد أبحر التجار الإيطاليون أحيانًا عبر البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا؛ حيث يمكنهم شراء الفلفل الأسود الذي كان يزرع على الساحل الجنوبي الغربي للهند، وكان الفلفل الأسود المجفف الصغير العنصر المثالي للتداول؛ لأن السفن الصغيرة في ذلك الوقت كان بإمكانها حمل ما يكفي منه لتحقيق ربح جيد. وتم شحن الفلفل من الهند إلى شبه الجزيرة العربية؛ حيث تنقله قوافل الإبل إلى سوريا، ومن هناك يمكن للإيطاليين شراء ما يكفي منه في سوريا لنقله إلى معرض الشمباني المقبل. كان كل طاه أضاف شيئًا من الفلفل الأسود الثمين لأطباقه يعرف أنه سيحصل بذلك على مذاق من الأراضي البعيدة. اعتقد جان دي جويفيل في وقت متأخر من عام 1300 – وهو كاتب فرنسي عاش في العالم الإسلامي – أن هذه التوابل تُزرع في الأطراف الخارجية لحديقة عدن، والتي تقع في مكان ما على طول نهر النيل، يقول: "يلقي الناس شباكهم في النهر ليلًا، وعندما يأتي الصباح، يجدون في شباكهم هذه السلع.. الزنجبيل، وبخور العود، ونبات الراوند، والقرفة".

كانت هناك بجانب أكوام من الفواكه والتوابل في المعارض أكوامٌ من الدواء الذي اشتراه الإيطاليون أيضًا من المسلمين: السكر. كتب طبيب في عام 1500 "السكر الأبيض اللطيف... عند تناوله باعتدال ينظف الدم، ويقوي الجسم والعقل، وينقي الصدر والرئتين والحلق". وأشار إلى أنه بالإضافة لذلك "يجعل الأسنان حادة ومسوسة"، وبما أن السكر كان يجب أن يمر عبر العديد من الأيدي قبل وصوله إلى المعارض، كان مكلفًا ويصعب الحصول عليه. فعلى سبيل المثال أحب ملك إنجلترا هنري الثالث السكر، ورغم ذلك كان هناك القليل الذي يمكن القيام به لتلبية رغبته. يُذكر أنه كتب إلى أحد المسؤولين في سنة 1226 يسأله عما إذا كان يمكنه الحصول على 3 أرطال من السكر الثمين، بتكلفة حوالي 450 من الدولار الحالي. وفي وقت لاحق ناشد رئيس البلدية على أمل أن يكون قادرًا على الحصول على أربعة أرطال أخرى من السكر، وأخيرًا، وبحلول عام 1243، تمكن من شراء ثلاثمائة رطل من هذه الحبوب النادرة.

واستمر الحال إلى القرن الرابع عشر حين أخذت البندقية بالسيطرة على التجارة الأوروبية مع العالم الإسلامي، وتوسع البندقيون بشكل كبير في تجارة السكر؛ لدرجة أنه بعد مائة عام من عهد هنري الثالث، تمكن الإنجليز من شراء آلاف الأرطال من السكر كل عام؛ ولعل ذائقتهم له نمت لأن الأوروبيين تعرفوا على السكر بطريقة مختلفة: من خلال الحرب.

من الحرب تأتي الحلاوة

وفقًا للأناجيل، عاش يسوع وتوفي في فلسطين، ولدت المسيحية هناك وفي المدن القريبة من البحر الأبيض المتوسط؛ ولكن مع صعود الإسلام وانتشاره لم يعد المسيحيون يحكمون هذه الأراضي المقدسة، وفي عام 1095 حشد البابا أوربان الثاني المسيحيين من أوروبا الغربية للخروج في مهمة

كبيرة لاستعادة تلك الأراضي المقدسة. جميعنا يعرف هذه الحروب المسماة الحملات الصليبية – الصراعات الدامية والدموية التي نشعر بندوبها في الشرق الأوسط حتى يومنا هذا –؛ لكن كانت الحملات الصليبية أكثر من مجرد معارك؛ فكانت أيضًا عملية تبادل للمعلومات، ونتيجة لاتصالهم بالمسلمين، بدأ الأوروبيون بالخروج من عالمهم المنغلق على نفسه، وتعلموا الرياضيات، ووفقًا لبعض العلماء، فإنهم تعلموا أيضًا كيفية بناء طواحين الهواء، والتي كانت تعد قوة كبيرة سمحت لهم بتجفيف المستنقعات والاستفادة من الأراضي المهدورة، ومع توافر المزيد من الأراضي، زاد إنتاج الغذاء.

لقد ساعدت هذه المعرفة التي امتلكها المسلمون أوروبا على الوقوف على قدميها. وعرَّفت الحروبُ ضد المسلمين الأوروبيين بالسكر؛



رسم الفنان الفرنسي روبينيت تستارد هذه اللوحة عام 1490 ، وهي تظهر الناس وهم يجمعون خشب الصبار الذي يطفو في نهر من حديقة عدن، والذي ينمو في شرق وجنوب شرق آسيا، وبالتالي فإن الأوروبيين يعرفون القليل عنه، كانوا على استعداد لتصديق أن الصبار، مثل الزنجبيل والقرفة، يمكن العثور عليه من خلال جمع الأغصان التي انحرفت بعيدًا عن الجنة، تمامًا مثلما يُنظر للبخور اليوم، وكان يُعتقد أن التوابل تحمل صفات روحية غامضة. (المكتبة الوطنية لروسيا، سانت بيترسبورغ)

فعندما ساروا إلى الأرض المقدسة لاحظوا بعض النباتات الناضجة التي كان المحليون

يسمونها "قصب العسل" والتي كانت تشبه إلى حد كبير الخيزران. "عند شعورنا بالجوع كنا نمضغ القصب طوال الوقت بسبب طعم العسل".

فشلت الحملات الصليبية المسيحية في الأراضي المقدسة؛ لأن الأوروبيين لم يتمكنوا من التمسك بأي مواقع مسلوبة من المسلمين لفترة طويلة؛ لكنهم قاموا بمراقبة الجزر الخصبة في البحر الأبيض المتوسط، مثل صقلية وقبرص ورودس. وهناك بدأوا بتطبيق المهارات التي تعلموها من المسلمين: ككيفية زراعة قصب السكر، وكيفية صنع السكر، وكانت هذه معرفة قيّمة؛ لأنه في حين أنه ليس من الصعب زراعة قصب السكر؛ إلا إن المزارعين الذين يخططون لصنع السكر نفسه كانوا يواجهون تحديًا من نوع خاص.

المشكلة مع قصب السكر

إذا كنت تريد إنتاج كميات هائلة من السكر فهناك نوعان من المشاكل المرتبطة بالقصب: واحدة تتعلق بالوقت والأخرى بالنار، زعم المزارعون أنه في اللحظة التي تخترق السكينُ القصبَ، يبدأ العصيرُ الحلو داخل القصب بالتصلب والتخشُّب. على ما يبدو، إذا لم يتم غلي القصب في غضون ثمان وأربعين ساعة، ويفضل خلال أربع وعشرين ساعة – فسوف يفسد. بكل حال، سواء كانت هذه السرعة ضرورية أم لا، أصر أصحابها على ذلك. إن أكوام القصب ثقيلة وضخمة ويصعب تحريكها، بينما السكر يأتي في هيئة بلورات صغيرة يمكن تعبئتها وشحنها عن طريق البحر، فالقصب يفقدهم المال طالما هو باق على حالته؛ ولكن يمكنهم كسب المال بمجرد تحويله إلى سكر، وعليه، وبالنسبة للمزارعين كان الوقت حقًا يعني المال.

الطريقة الوحيدة لصنع الكثير من السكر هي هندسة نظام يشمل جيشًا من العمال عبر الحقول يقوم بقطع القصب وحمله ليتم سحقه وتحويله إلى سائل يتدفق إلى غرفة الغليان. هناك، ومن خلال العمل على مدار الساعة، يقوم العمال بطهي السائل المغلي وتصفيته بحيث يتحول الشراب الحلو المذاق إلى سكر، ولا يشبه هذا العملُ عملَ المزارع الذي كان يمارسه الرجال والنساء لآلاف السنين في عصر العسل؛ بل هو أكثر بكثير ويشبه عمل المصانع؛ حيث يتوجب على كل عامل أن يقوم بمهمته بشكل صحيح وفي الوقت المناسب، وبتعاون من الجميع؛ وإلا انهار النظام برمّته. ابتكر



تعود هذه اللوحة لعام 1623 تُظهر العبيد وهم يقومون بجميع المهام المتعلقة بإنتاج السكر تحت أشعة الشمس الحارقة، حيث يحصدون المحصول، ويجمعون سيقان القصب في حزم، ويحملونها إلى المطحنة، ثم يتم وضع القصب تحت عجلة، ثم يغلون السائل الناتج في الأوعية، وختامًا تترك بلورات السكر في الجرار لتبرد. لم تكن هناك مطحنة حقيقية مثل هذه؛ ولكن كان المقصود من اللوحة إظهار دورة إنتاج السكر كلها في لمحة. (مكتبة الكونغرس)

المسلمون شكلًا جديدًا من أشكال الزراعة لمعالجة السكر، والذي أطلق عليه اسم مزارع السكر.

لم تكن المزرعة هي التقنية الجديدة، بل كانت الطريقةَ الجديدة التي اتبعوها لتنظيم زراعة المحصول وقطعه وتنقيته. قد تكون في المزرعة العادية ماشية، ودواجن، وحقول الحبوب، وبساتين الفاكهة – أو أنواع مختلفة من الأطعمة للتناول أو البيع؛ ولكن على النقيض من ذلك بالنسبة لمزارع السكر فقد كان لها غرض واحد فقط وهو صنع منتج واحد يمكن زراعته، وحصده، وغليه، وتجفيفه، وبيعه إلى أسواق بعيدة. وبما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش على السكر فحسب، فإن المحصول الذي يُزرع في المزارع لا يستطيع حتى إطعام الناس الذين يحصدونه. لم يحدث من قبل في تاريخ البشرية أن تدار المزارع بهذه الطريقة، حيث الآلات مصممة لتلبية رغبة واحدة فقط للمشترين الذين يمكن أن يكونوا على بعد آلاف الأميال. في المزارع كانت هناك مجموعات كبيرة من العمال – بين خمسين وعدة مئات. كانت المطحنة بجوار المحصول، بحيث تكون الزراعة والطحن في المكان نفسه، وكان العمل برمته محكومًا بالانضباط الشديد. بدأ المسلمون بوضع قواعد هذا النوع الجديد من الزراعة، وقاموا بالإضافة للمسيحيين باستخدام عبيدهم لتشغيل تلك المزارع.

كان العديد من العبيد الذين يعملون في مزارع السكر في البحر المتوسط في بداية الأمر من الروس، أو أي شخص تم أسره في الحرب، ولكن حتى هذا الانضباط الشديد لم يحل المشكلة الثانية في

عملية صنع السكر. من أجل الحفاظ على درجة الغليان في تلك الأوعية، كانت هناك حاجة إلى كمية كبيرة من الخشب للحرق – في وقت لاحق، استخدم مزارعو السكر سيقان القصب كوقود –. لا توجد أماكن كثيرة في العالم تقدم الأراضي الغنية التي يمكن أن يُزرع فيها قصب السكر وتكون في الوقت نفسه بالقرب من الماء بحيث يمكن شحن السكر بسهولة إلى الشواطئ البعيدة، والمليئة بالأشجار الجاهزة للقطع. حلت زراعة السكر مشكلة إدارة قطع المحصول وتنقيته؛ ولكنها لم تزود المزارعين بالغابات التي يحتاجون إلى أخشابها من أجل غلي شراب السكر.

في القرن الخامس عشر، كانت إسبانيا والبرتغال تتنافسان لاستكشاف ساحل أفريقيا وإيجاد طريق بحري إلى آسيا، وبهذه الطريقة، يمكنهم الحصول على التوابل الآسيوية الثمينة دون الحاجة إلى دفع أسعار عالية لوسطاء البندقية والمسلمين. غزا البحارة الإسبان والبرتغاليون الذين يبحثون عن هذه الطريق البحرية جزرَ الكناري، وسرعان ما بدأوا ببناء مزارع السكر فيها على الطراز الإسلامي، وأتوا بالعبيد من أفريقيا المجاورة. كان هناك بحّار واحد يعرف هذه الجزر بشكل خاص لأنه كان يتاجر بـ "الذهب الأبيض" – السكر، وبعد ذلك عندما انطلق في رحلته الثانية عبر البحر إلى ما كان يعتقد أنه آسيا، حمل قصب السكر معه على متن سفينته من غوميرا – إحدى جزر الكناري –، كان اسم هذا الرجل كريستوفر كولومبوس.

الفصل الثاني

الجحيم

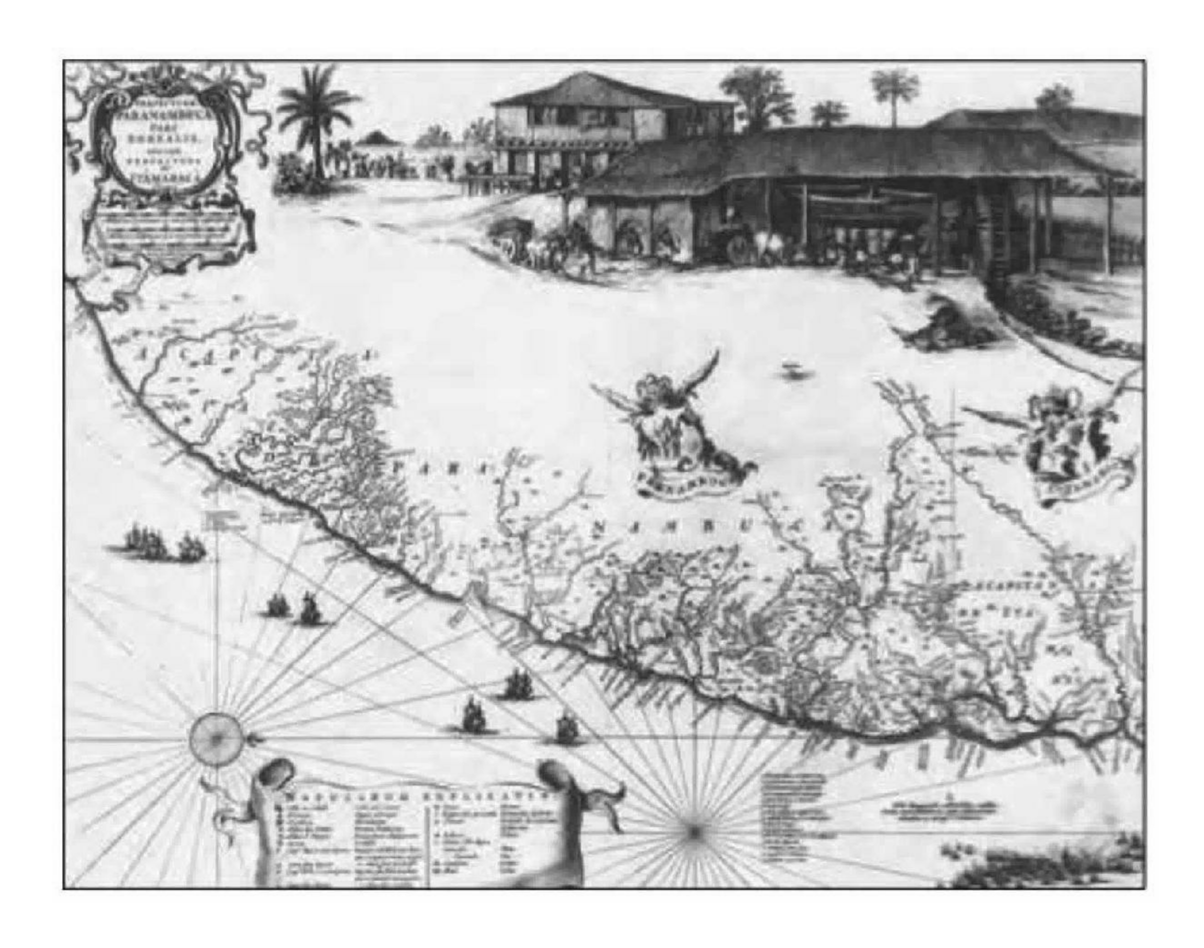
مرحبًا بكم في الجحيم!

إنها فترة الصباح الباكر على جزيرة الكاريبي، والعبيد الأفارقة، حيث المئات منهم، يتم إرسالهم إلى الحقول للعمل في المزارع، ظهورهم منحنية منهكة، وعيونهم تحرقها الدخان الذي يملأ المكان، يعملون بجد بينما يستمر مسؤول الحراسة بمراقبتهم وهو راكب حصانه وسوط مثبّت على سرجه.

ازدهرت النباتات التي جلبها كولومبوس معه إلى الجزيرة التي أسماها آنذاك هيسبانيولا (هايتي والجمهورية الدومينيكية الآن)، وسرعان ما بدأت زراعة السكر تنتشر في جميع أنحاء الجزيرة، وأصبحت أشبه بما يمكن أن نسميه ثورة "الذهب الأبيض". رأى الكثير من الأوروبيين كيف يمكن لهذه التجارة باستغلال العبيد أن تفتح الباب لكسب ثروة واسعة. ازدهرت زراعة السكر أولًا في هيسبانيولا، وانتشرت أخبار الذهب الأبيض في المكسيك، ولم تحظ هذه الزراعة باهتمام الإسبان، مما منح الأوروبيين الآخرين الفرصة لأخذ زمام المبادرة في البحث عن ثروات السكر.

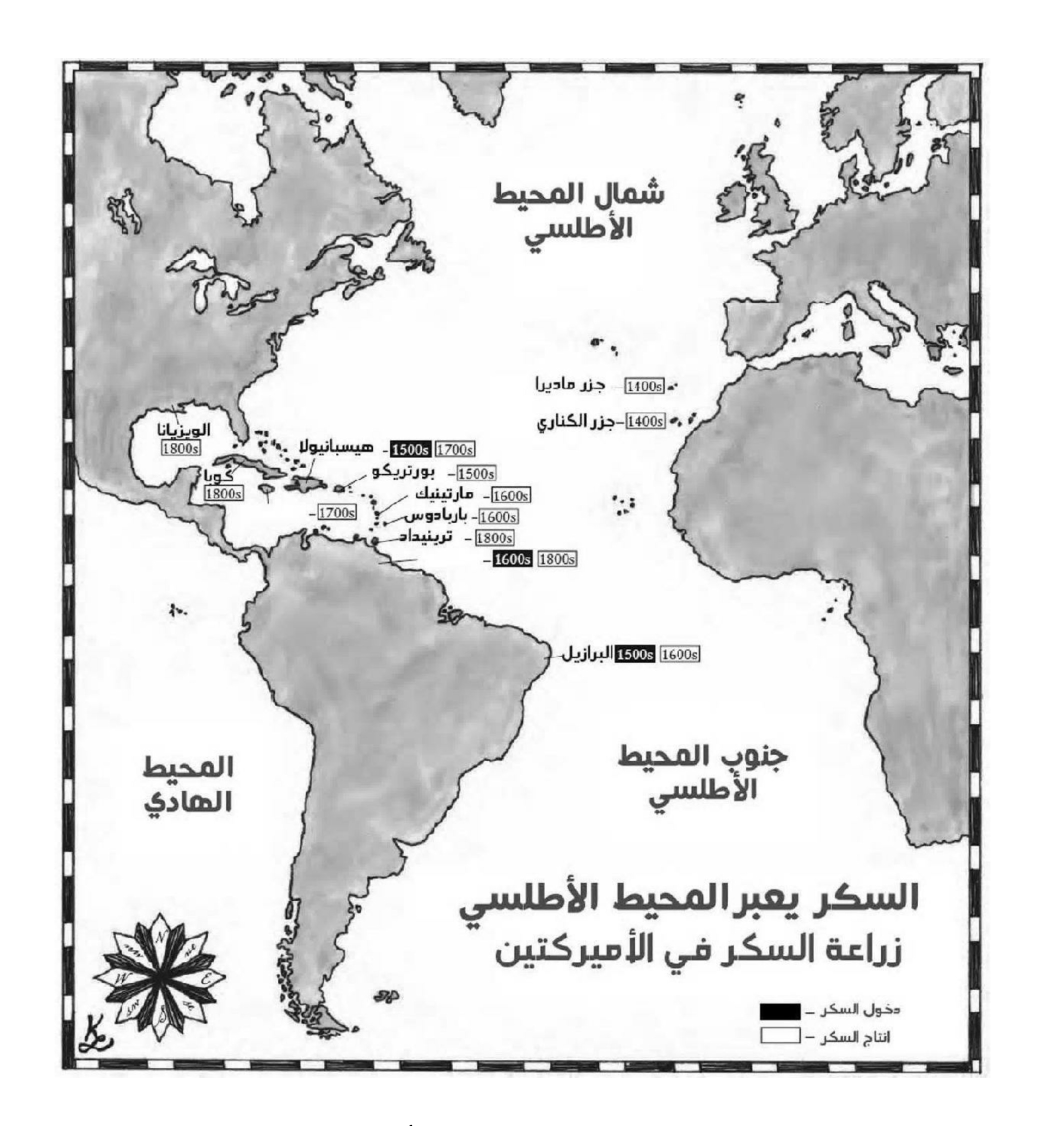
جعل الأوروبيون البرازيلَ مركزًا لصناعة السكر، بينما انشغل البرتغاليون الكاثوليك والبروتستانت الهولنديون بالاقتتال من أجل السيطرة؛ حيث حوّل البريطانيون بربادوس إلى جزيرة السكر، ثم وجد الفرنسيون تربة غنية في هيسبانيولا من جديد، وكلما زادت زراعة القصب، تم بناء المزيد من المطاحن، وإرساء المزيد من الأحواض لشحنه، وجلب المزيد من الأشخاص من أفريقيا للعمل في المزارع.

وصل أول قارب أوروبي إلى البرازيل في القرن السادس عشر. كان بيدرو كابرال يحاول الإبحار إلى آسيا لشراء التوابل لبلده البرتغال، فأوصله المحيط إلى البرازيل بدلًا من ذلك؛ فسهّل هذا الأمر جلب العبيد عبر المحيط الأطلسي إلى البرازيل، وعلى مدى أربعمائة سنة لاحقة تم نقل نحو ثلاثة ملايين أفريقي إلى البرازيل. ومن هنا ظهر المثل الشائع: "لا برازيل بدون سكر؛ لا سكر بدون عبيد؛ لا عبيد بدون أنغولا".



خلال أكثر من مائة سنة، أي بين 1701 و1810، تم إحضار 252،500 أفريقي مستعبدين إلى بربادوس، الجزيرة التي تحتل فقط 166 ميلًا مربعًا – هي اليوم واحدة من أصغر البلدان في العالم –. ثم بدأت إنجلترا بالاستحواذ على المزيد من جزر السكر، بدءًا من جامايكا، التي أخذتها من إسبانيا في 1665. وفي الفترة نفسها التي تم فيها إحضار 500 252 أفريقي إلى بربادوس، تم نقل 662400 أفريقي إلى جامايكا. وهكذا، دفع السكر أكثر من 000 900 شخص إلى العبودية، عبر المحيط الأطلسي، إلى بربادوس وجامايكا، وهما مجرد جزيرتين من جزر السكر. ملأ الإنجليز أنتيغوا، ونيفيس، وسانت كيتس، ومونتسيرات بالعبيد ومطاحن السكر، كما استولوا على الكثير من غيانا الهولندية للسبب نفسه.

بعد رؤية ثروات السكر، اندفع الفرنسيون لتحويل نصف جزيرة هيسبانيولا التي يسيطرون عليها – والتي هي الآن هايتي –، وكذلك مارتينيك



وغواديلوب وغويانا الفرنسية – على طول ساحل أمريكا الجنوبية بالقرب من غيانا الهولندية –، إلى مستعمرات سكر خاصة بهم، كانت مليئة بمئات الآلاف من العبيد الأفارقة. وبحلول عام 17، كانت السفن البريطانية تأخذ في المتوسط 34250 من العبيد من أفريقيا كل عام، وبحلول 1768، بلغ العدد 53100. وكان السكر الذي تكدس على الأرصفة بالقرب من المزارع شيئًا جديدًا في العالم: حلاوة نقية، ومتعة خالصة ورخيصة؛ حيث تمكن العامة من تحمل ثمنه.

يبين العلماء أنه من المهم لجميع البشر التعرف على النكهات المالحة والحامضة والمختلطة؛ ولكننا من لحظة الولادة نتوق بقوة للمذاق الحلو، وكان قصب السكر أول منتج يشبع تلك الرغبة في تاريخ البشرية. وقد أنتجت الحياة المريرة للأفارقة المستعبدين الكثير من السكر الذي استمر في الانتشار في جميع أنحاء العالم. وبين 1600 و1800 قادت تجارة السكر الاقتصاد بأكمله، حيث ربطت أوروبا، وأفريقيا، وآسيا، والأمريكتين. بدأ العصر الحقيقي للسكر، وأعاد تشكيل العالم أكثر من أي حاكم، أو إمبراطورية، أو حرب.

دورة الموت والحلاوة

لم يتم تعليم الملايين من الأفارقة الذين تم أخذهم للعمل في مزارع السكر القراءةَ والكتابة، فهم لم يؤخذوا للتحدث بل للعمل، وقد ادعى أولودا إكيانو، الذي عاش في الفترة ما بين 1745 و1797، أنه كان أفريقيًّا تم أخذه إلى بربادوس للعمل في مجال السكر، حيث تعلم الكتابة ليروي سيرته الذاتية في كتاب. وصف إكيانو ما حدث معه من وصوله إلى بربادوس وبيعه لمزارعي السكر فقال: لقد تم أخذنا مباشرة إلى ساحة البيع، حيث أُجلسنا جميعًا معًا كقطيع أغنام، وبعد إطلاق إشارة معينة (كضربة طبل)، هرع المشترون إلى الفناء، وبدأوا باختيار العبيد وشرائهم؛ ولأنه كان خفيفًا (وكذلك ذكيًا ومفيدًا)، تمكن إكيانو من تجنب بيعه للعمل في مزرعة. وبينما تنقلنا كلماته من أفريقيا إلى جزر السكر، إلا إن مذكراته لا تنقلنا إلى الحقول، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نسمع أصوات أولئك الأفارقة مباشرة؛ ولكي نتمكن من سرد قصتهم، فليس لنا إلا أن نبدأ بما فعلوه، لنعرف كيف شكَّل السكر حياتهم.

بالنسبة للأفريقي، سواء تم إرسالك إلى منطقة البحر الكاريبي أو أمريكا الجنوبية، فأنت الآن جزء من آلة صنع السكر، لا يهم كثيرًا أين هبطت سفينتك؛ فالدورة الوحشية لصنع السكر هي نفسها سواء عملت في الحقول الخصبة في البرازيل أو في تلال جامايكا؛ إذا لم تكن التضاريس صخرية أو شديدة الانحدار؛ فقد تكون جزءًا من مجموعة من العبيد الذين يقودون الثيران لرسم المحاريث عبر الحقول؛ وفي الأراضي الصخرية قد يتم تكليفك بتهيئة مربعات لا تتجاوز مساحتها الخمسة أقدام مربعة من الأرض بعمق خمسة بوصات، ثم حفر ثقوب لزرع القصب في تلك المربعات، كما كان من الضروري أن لا تتوقف عن العمل فالمشرفون يراقبون عن كثب للتأكد من ذلك، ويضربون العبيد الذين لم يحفروا على الأقل ٢٨ ثقبًا للقصب في الساعة. كان لهذا العمل الشاق هدف واحد فقط وهو زراعة محصول من شأنه أن يُنهي حياة كل عامل يلمسه. كما أوضح إكيانو، فإن عبيد السكر قلما نالوا قسطا من الراحة حتى في نهاية يومهم.

التجارة الدائرية

إذا كنت تمشي في شارع بيكمان في نيويورك عام 1750، كنت ستصادف متجرًا يملكه جيرارد بيكمان – تم إطلاق اسم عائلته على الشارع –. أظهرت المنتجات الموجودة على رفوفه العديد من الطرق التي كان السكر يربط بها العالم. كان بيكمان والتجار الذين هم مثله يشحنون الدقيق والخبز والذرة ولحم البقر المملح والخشب إلى منطقة البحر الكاريبي، ويعودون بالسكر وخمر الرَم والدبس والليمون والكاكاو والزنجبيل، ورغم بساطة هذه التجارة الجارية على ساحل المحيط الأطلسي؛ إلا إنها كانت جزءًا من نظام عالمي أكبر بكثير.

تتحدث الكتب المدرسية عن مثلث تجارة؛ حيث كانت السفن الخارجة من أوروبا تحمل الأقمشة والملابس والسلع البسيطة المصنّعة إلى أفريقيا، حيث باعوا بضائعهم واشتروا العبيد الذين تم شحنهم عبر المحيط الأطلسي إلى الجزر، وبيعهم مقابل السكر، بعد ذلك جلبت السفن السكر إلى أمريكا الشمالية، ليتم بيعه أو تحويله إلى خمر الرَم، والذي أعاده البحارة إلى أوروبا؛ ولكن هذا المثلث الذي هو أقرب لمستطيل كان في الواقع مضللًا تمامًا.

كان يمكن لتجارة بيكمان، على سبيل المثال، أن تقطع التجارة عن أوروبا تمامًا؛ حيث كان يمكن لسفن المستعمرين البريطانيين أن تخرج مباشرة من نيويورك ونيو إنجلاند وهي تحمل المواد الغذائية والأخشاب التي تحتاج إليها الجزر، وتقايضها بالسكر الذي جلبه التجار إلى الساحل، ثم يقايض المستعمرون سكرهم بالأنسجة الإنجليزية والملابس والسلع البسيطة، أو يأخذون معهم خمر الرَم مباشرة إلى أفريقيا لشراء العبيد لبيعهم في جزر السكر. كما تتنافس السفن الإنجليزية، والهندية، وأمريكا الشمالية، والهولندية على تزويد مزارع البحر الكاريبي بالعبيد وشراء السكر منهم، لكن حتى هذه السفن التي كانت تملأ مياه المحيط الأطلسي لم تكن سوى جزء من نظام أكبر من التجارة العالمية.

أصر الأفارقة الذين باعوا أفارقة آخرين كعبيد على استلام أجورهم كأقمشة مصنوعة في الهند. في الواقع اكتشف المؤرخون أن نحو 35% من البضائع التي تم نقلها من أوروبا إلى أفريقيا جاءت في الأصل من الهند. ما الذي يمكن للأوروبيين استخدامه لشراء القماش الهندي؟ شحن الإسبان الفضة من مناجم بوليفيا إلى مانيلا في الفلبين واشتروا المنتجات الآسيوية هناك. وأي فضة تمكن القراصنة الإنجليز أو الفرنسيون من سرقتها من الإسبان كانت أيضًا مثالية لشراء القماش الآسيوي، وهكذا ومن أجل الحصول على الأقمشة التي من شأنها أن تشتري العبيد، الذين يمكن بيعهم لقاء السكر، الذي يسعى الإنجليزي لأن يضيفه لكوب الشاي، شحن الإسبان الفضة إلى الفلبين، وأبحر الفرنسيون والإنجليز والهولنديون شرقًا إلى الهند. ما كنا نسميه مثلثًا كان في حقيقة الأمر مستديرًا مثل الكرة الأرضية.

لم تكن أكواخ العبيد غالبًا سوى حظائر مفتوحة بُنيت في الأماكن الرطبة – والتي كان من المفترض أن تكون جافة ومغطاة بشكل جيد –؛ مما أساء لصحة تلك المخلوقات المتعبة الفقيرة بسبب تعرضهم للهواء الرطب ونومهم في مكان غير مناسب أو مريح.

بعد ذلك يأتي دور العمال الذين كانت وظيفتهم دفع قطع القصب في الصفوف التي تم حرثها وتغطيتها بالتربة، وتعقب هذه العملية مرحلة حش العشب وإزالة الضار منه بعد نمو القصب، كان عمل الباذِر أيضًا إزالة الأجزاء الصغيرة التحتية التي يمكن أن تخنق سيقان القصب وتمنعها من النمو بما فيه الكفاية، أو تجذب الحشرات، ويتم تنظيف الأعشاب الضارة وإزالتها ثلاث مرات حتى ينمو القصب بشكل كامل، وكان هذا العمل الأسوأ الأعمال؛ حيث يقضى الباذر ما بين 10 إلى 14 ساعة في اليوم منحنيًا، منهمكًا في إخراج تلك الأجزاء غير المرغوبة من قاعدة سيقان القصب، متجاهلًا الفئران التي قد تتعثر بقدميه أو حواف أوراق الزرع الحادة التي تحدث شقوقًا مؤلمة على معصميه وذراعه، كانت الفئران في كل مكان، حيث أحصت سجلات مزرعة واحدة في جامايكا ثلاثة آلاف منها في ستة أشهر فقط.

ولأنه عمل لا يتطلب قوة كبيرة من الذراع، فإن إزالة الأعشاب الضارة غالبًا ما تقوم بها النساء أو الفتيان الصغار أو الرجال صغيرو الحجم.

على هذه الجزر، كانت هذه المجموعة من العمال تسمى "مجموعة الخنازير"، وفي بعض الأحيان، كانت عملية إزالة الأعشاب الضارة تصبح أكثر خطورة؛ حيث يتم حرق النباتات غير المرغوب فيها؛ ولكن يصبح من الصعب السيطرة على النار، خاصة عندما تكون الرياح عاتية، أو يتفاقم غضب العبيد الذين يُعامَلون بوحشية وقسوة، حينها قد تبتلع النيران كل الحقول.

قد تكون محظوظًا بما فيه الكفاية إذا تم اختيارك وتدريبك لتكون الشخص الذي يراقب نمو القصب ويشرف عليه ويقرر إذا كانت النباتات مهيأة للقطع أم لا، ورغم أن هذه المعرفة الخاصة لا تعني هنا أنه لم يعد من العبيد، ولا تساعده في تحريره أو الدفع له مقابل عمله؛ إلا إن ذلك كان يحمل شيئًا من السعادة للعبيد عندما يدركون أن لديهم شيئًا من المعرفة التي يحتاجها أصحاب المزارع، وفي حال كان العامل جيدًا فقد يحصل على كمية أكثر قليلًا من الطعام، وبضع لحظات إضافية للراحة، ويصبح من المحظوظين الذين ينالون فرصة ليكونوا من القلة الذين عاشوا لفترة كافية لإنجاب الأطفال ورؤيتهم يكبرون.

عندما تنضج النباتات؛ يتم إرسال مجموعة كبيرة من العبيد لقطع الخشب وإشعال النار تحت

القدور الكبيرة، في حين يقضي آخرون أيامًا في نقل الأخشاب في البرازيل، عندما تم إعلان أن موسم الحصاد على وشك أن يبدأ؛ حضر الكاهن لمنح البركة للمطحنة والعمال، كان حضوره مثل صافرة في بداية سباق؛ إذ انطلق كل شيء بسرعة؛ فأعطي العبيد للمرة الأولى مكائن ومعدات لاستخدامها في الحصاد، وعملت المكائن القاطعة بنهم ودون توقف تقريبًا؛ حيث كان على المطاحن سحق القصب من الرابعة بعد الظهر إلى العاشرة من صباح اليوم التالي، ويتم إيقافها فقط في حرارة منتصف النهار، وكان على العبيد التأكد من وجود قصب كافٍ خلال كل فترة من تلك الفترات.

كانوا يعملون في فرق، يقطع الرجل منهم القصب، بينما تكون المرأة ملزمة بجمع كل 12 في حزمة. ووفقًا لتقرير ظهر عام 1689، كان من المتوقع من كل زوج من العمال قطع 4400 ساق وربطها يوميًا، ويعتمد عدد القطع على قدرة المطحنة، كما يجب أن يجهز المحصول قبلها بيوم؛ لأن قصب السكر يجف سريعًا.

كان قطع القصب عملًا شاقًا للغاية؛ لكنه لم يكن كذلك مقارنة بما جاء بعد ذلك فكان لا بد من سحق أكوام من القصب الطازج تمامًا، وأصر السادة على ألا يتوقف العمل أبدًا، وغالبًا ما كانت النساء تدرنَ المطاحن – وهو عمل خطير – دون راحة؛ إذ كثيرًا ما يعلق فأس بالقرب من البكرات حتى إذا ما أغلقت العاملة عينيها ثانية حتى يخترق ذراعها، ومرارًا لاحظ زوار مزارع السكر أن هناك عددًا من العاملات ذوات ذراع واحدة.

استمر قطع القصب يومًا بعد يوم، وأسبوع بعد أسبوع، وشهر بعد شهر، ثم نقله للطحن، واستمرت المطاحن في العمل ما دام هناك قصب. كان الموسم يتراوح بين أربعة وعشرة أشهر، ويتوقف هذا على الظروف المحلية. وصف زائر جاء إلى البرازيل عام 1630 المشهد قائلًا: "يعمل الناس الذين يحملون لون الليل ويتأوّهون في الوقت نفسه دون نيل لحظة سلام أو راحة، من يرى كل تلك الآلات والصخب سيقول إن هذا هو الجحيم بعينه".

يتدفق سائل ذو لون رمادي شاحب تعلوه رغوة بيضاء من المطاحن، يتحرك عبر مزراب خشبي مباشرة إلى مبنى الغلي، وهو مبنى من الأفران الكبيرة؛ حيث تم غلي الشراب وتحويله إلى بلورات. قدور عملاقة من النحاس، عرضها حوالي أربعة أقدام وعمقها ثلاثة أقدام، وهي الأولى في سلسلة تحوي قدورًا أصغر، وتحت كل منها فجوة أطلق عليها البرازيليون "الأفواه الكبيرة المفتوحة" وهي التنانير الضخمة التي كان لا بد من تزويدها باستمرار بالخشب لتبقى مشتعلة. كان مبنى الغلي محفوفًا بالمخاطر كالمطاحن؛ إذ إن غفوة بسيطة قد تجعل العامل يسقط في السائل المغلي.

كانت النار التي تندلع من "الأفواه" ضخمة، وتعلو القدور غيوم من البخار، وكانت الحرارة شديدة لدرجة أن مباني الغلي كان يجب رشها بالماء حتى لا تحترق. ثم كانت هناك الرائحة، أو بالأحرى، نتانة السائل المغلي، وبينما كان السائل يغلي كانت رغوة كريهة ترتفع إلى الأعلى، وكان العبد ملزمًا بكشطها بمغرفة طويلة. كانت عملية تنقية السائل تتم غير مرة وهو يغلي في القدور النحاسية.

كانت مهمة مراقبة السائل المغلي تُعطى لأحد العبيد الذين يحملون مهارات عالية، بحيث يستطيع الحكم على كل خطوة؛ فيقرر توقيت نقل السائل من غلاية إلى أخرى، ومتى يكون جاهزًا للمرحلة التالية، ويقوم بكل هذا العمل الدقيق للوصول إلى أهم لحظة وهي عندما يصبح السائل سميكًا ونقيًّا؛ يكون الوقت قد حان لإبعاد السائل عن النار وتركه ليبرد ويتشكل على هيئة بلورات السكر، كان المسؤول عن هذه العملية مثل الكيميائي أو صانع النبيذ، بل أشبه بالساحر؛ إذ يجب عليه أن يعرف اللون والرائحة، ويستشعر المذاق في الهواء.

وأخيرًا، أصبح السكر كومة من البلورات؛ ولكن هذه ليست النهاية؛ فالبلورات تحتاج إلى تنقية أخرى، واعتمادًا على الكيفية التي تتم بها هذه الخطوة بعناية؛ فإن النتيجة النهائية يمكن أن تكون بدرجة معينة من ظلال اللون البني إلى الأبيض الناصع؛ في البرازيل مثلًا، تُترك البلورات لمدة شهر لتجف، تراقبها النساء المستعبدات اللواتي يمتلكن الخبرة الكافية لتحريك السكر بعناية، وفصل البلورات النقية البيضاء عن تلك الأقل نصاعة.

معرض صور صناعة السُّكر

كان على مزارع السكر أن تعمل مثل المصانع، تستخدم البشر كآلات لا تعرف الكلل. كانت حياة عمال السكر يحكمها القصب، وسرعة العمل الذي لا يتوقف. إذا نظرت إلى رسومات مزارع السكر في القرن التاسع عشر أو في الصور الفوتوغرافية التي التقطت بعد مائة عام، سترى مجموعات من الفقراء، فوقهم مشرف يركب حصان، والخطوات نفسها في دورة السكر. والصفحات التالية هي بمثابة عرض لصور تحكي عن صناعة السكر.

مشاعر عمّال السكر

لم يُجرِ أحدٌ مقابلةً مع الأفارقة الذين عملوا في حقول السكر لسؤالهم عن عملهم الشاق، كانوا منذورين للعمل فالموت؛ ولكن كانت هناك طريقة واحدة يمكننا بها سماعهم وهي اخترع الأفارقة الموسيقى، والرقصات، والأغاني التي تحمل مشاعرهم وهمومهم الحياتية. (للاستماع إلى نماذج من موسيقى حقول السكر، يمكنك زيارة موقع www.sugarchangedtheworld.com. في بورتوريكو، وبومبا هو شكل من أشكال الموسيقى والرقص اخترعه عمال السكر؛ بل هو نوع من المحادثة الإيقاعية بين امرأة والرجل الذي يراقصها، والطبالون الذين يشاهدونها ويجدون الإيقاع الصحيح لتحركاتها، ولم تكن الأغاني تتضمن كلمات تنم عن غضب أو تمرد؛ لكن تأرجُح الراقصة، وصوت الطبول، كانا يقولان أن هؤلاء ليسوا مجرد عبيد، ولم يولدوا فقط ليعملوا ويموتوا؛ بل ها هم على قيد الحياة، يتحدثون إلى بعضهم بعضًا بحركاتهم وأصواتهم الخاصة. في كوبا سرد عمال السكر قصصهم في كلمات وألحان رومبا. هناك أغنية تقول: "الرئيس لا يريدني أن أقرع الطبل".

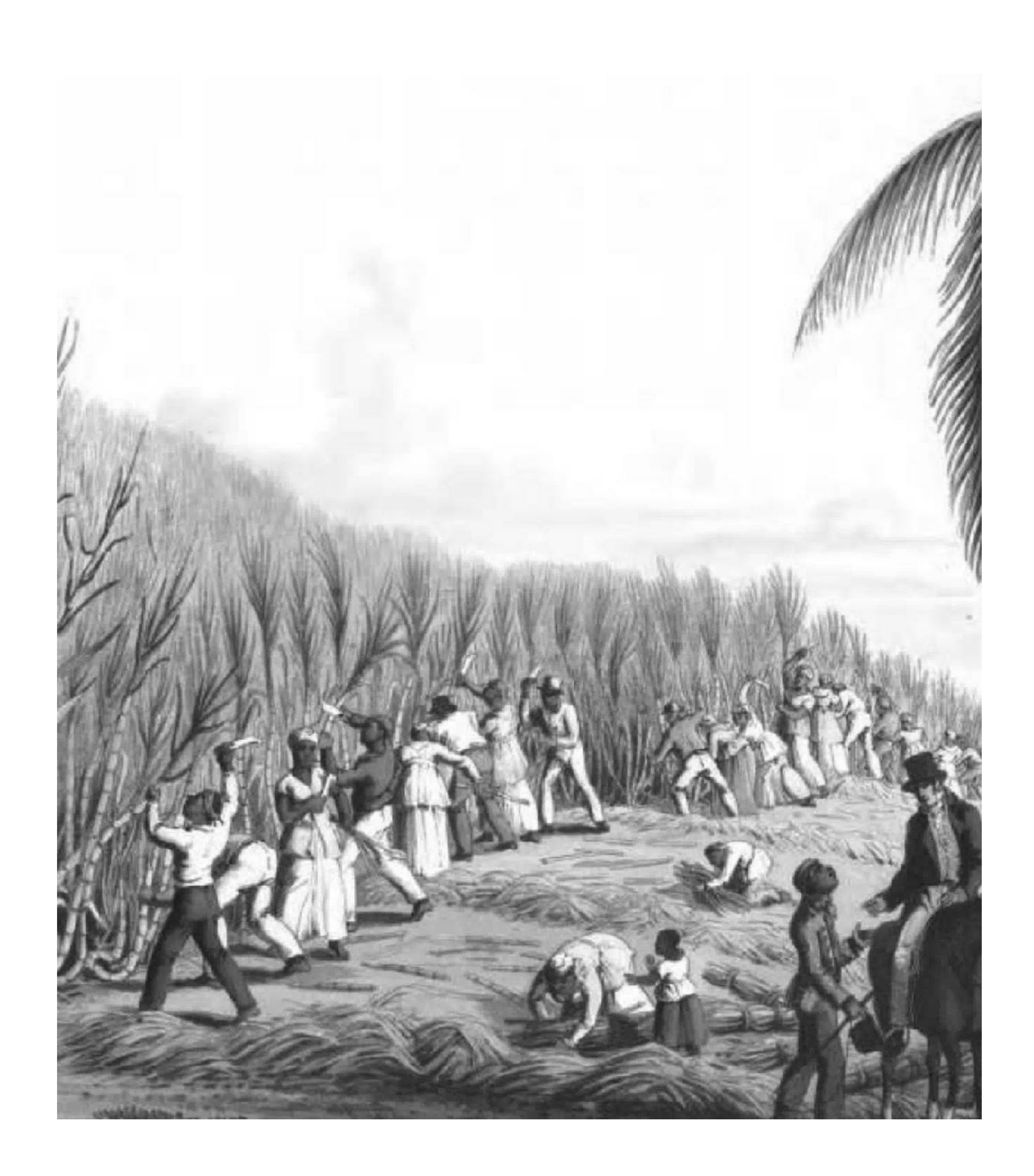
كان المشرفون يخشون أن يستخدم العبيد الطبول لإرسال الرسائل ونشر أفكار التمرد.

وبالمثل، كان في البرازيل رقصة تسمى ماكوليليه Maculelê، والتي يربطها بعضهم بحقول السكر، وتشتمل هذه الرقصة على العصي أو سيقان قصب السكر، وتبدو قريبةً من تدريب

على القتال. في العديد من جزر السكر، خلق الأفارقة رقصات مماثلة حيث يدورون ويقفزون، ويبدون كما لو أنهم يقومون بتهديد بعضهم بعضًا، ويرقصون بالعصي حسب الإيقاع. وكانت الرقصات وسيلة لتقليد الحروب دون تحدّي السادة.

اتخذ بعض المستعبدين الخطوة التالية وذلك بالهرب من المزارع أو مهاجمتها، وعندما لم يستطع الأفارقة المستعبدون أن يتحملوا صعوبة حيواتهم، خاطروا بكل شيء للتمكن من الهرب أو القتال، ولم تكن لدى الرؤساء سوى طريقة واحدة فقط لإسكات عمالهم وذلك من خلال جعل سعر الحرية أو التمرد مرتفعًا جدًا، وبهذا أصبح نشر الرعب وظيفة المشرف.











In the West Indies, where the Sun
  With Tropic fervour heats the ground,
The SUGAR CANE is chiefly grown
  (Though 'tis in other regions found)

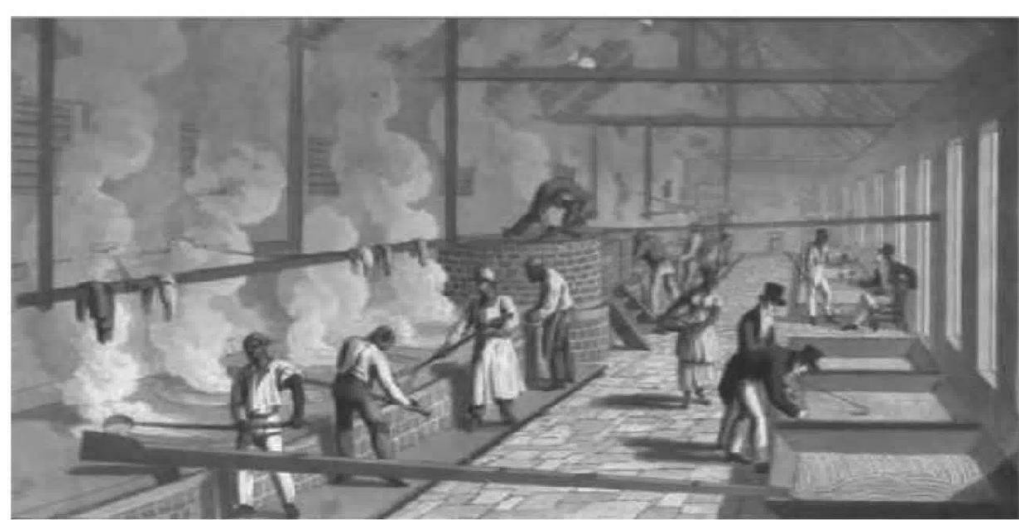
The earliest step is shown below,
Ere men begin the land to plough;
They burn the stubble, here called "Trash,"
And spread upon the soil its ash.

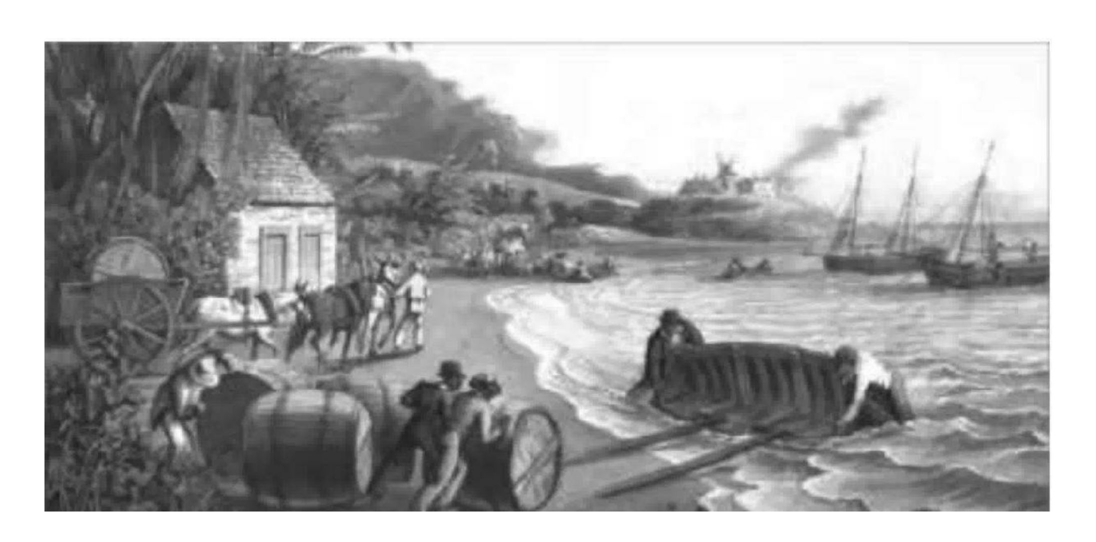










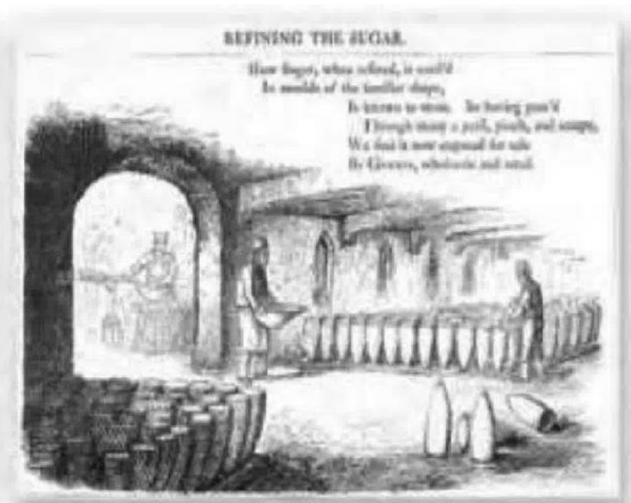




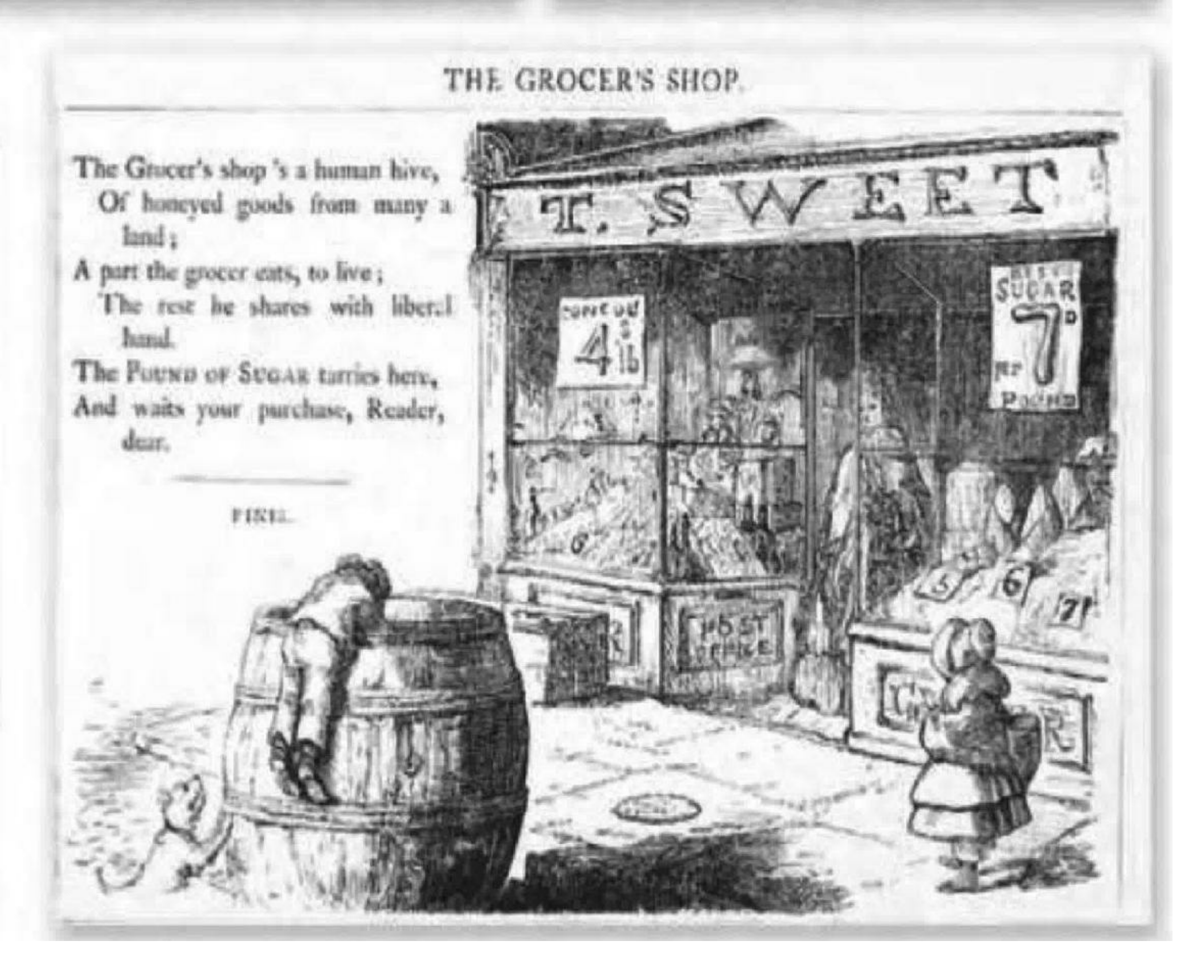




OPENING THE HOGSHEADS OF MOIST SUGAR.



REFINING THE SUGAR.



THE GROCER'S SHOP.
The Grocer's shop 's a human hive,
Of honeyed goods from many a land;
A part the grocer eats, to live;
The rest he shares with liberal hand.
The POUND OF SUGAR tarries here,
And waits your purchase, Reader, dear.
FINIS.
T. SWEET
SUGAR 7d per POUND
4 lb
POST OFFICE




17


18


19











بالماريس: مملكة أرون

زومبي: يذكرنا اسم هذا الرجل بخرافة الأموات الأحياء، وهكذا بالضبط كانت نظرة البرازيليين البِيض له. أخلف زومبي عمه غانغا زومبا (القائد العظيم) وأصبح زعيمًا للأمة التي أرادت التخلص من أغلال العبودية سواء كانوا من الأفارقة، أو الأمريكيين، أو حتى العبيد البيض، تم إنشاء الحركة في البرازيل منذ ما يقرب من قرن، كان بطلًا لشعبه ومبعث رعب لتجار الرقيق الأوروبيين، ويكن له البرازيليون اليوم احترامًا عظيمًا. بين 1600 و1695 تم اكتشاف بالماريس (وتعني "مكان أشجار النخيل")،

في الجبال وراء مزارع السكر الساحلية البرازيلية، كان بلدًا قائمًا بذاته؛ حيث أفاد الأوروبيون بأنهم كانوا يرون ورش عمل وحدادة وخزانات، فضلًا عن مدن محمية بشكل جيّد بالإضافة لوجود الكنائس والمساكن.

في ذروته، كان يعيش ما يقرب من 20,000 إلى 30,000 شخص في بالماريس، يتبعون القوانين والعادات والمعتقدات التي جلبت مباشرة من أفريقيا والتي اختلطت مع الممارسات الأمريكية الأصلية، فعلى سبيل المثال، كانوا يرتدون ملابس أوروبية، مزينة في بعض الأحيان بطرق أفريقية، وكانوا يتعبدون في الكنائس المسيحية في الاحتفالات التي تكرِّم الآلهة الأفريقية، ويطهون الطعام الأفريقي بإضافة التوابل الأوروبية والذرة المحلية. كان أي عبد في مزرعة السكر البرازيلية يعرف آنذاك أن الحرية كانت ستصبح قريبة وفي متناول اليد؛ إذا وصل أو وصلت إلى مجتمع بالماريس.

كان العبيد الذين هربوا وعاشوا خارج سيطرة المزارعين يطلق عليهم اسم "مارون" – المستمدة من كلمة سيمارون الإسبانية وتعني الماشية التي هربت وعاشت في البرية. لم يكن بالماريس سوى مثالٍ جليٍّ على المجتمعات المارونية التي وُجدت في جميع أراضي السكر. كان العبيد يهربون إلى الغابة في غوياناس، وإلى أخاديد جامايكا، وإلى المستنقعات في أمريكا الشمالية؛ بذل المزارعون قصارى جهدهم للقضاء على الجماعات المارونية؛



جاء جون غابرييل ستدمان إلى مستعمرة سورينام الهولندية للسكر عام 1772 لمحاربة العبيد الهاربين، وكتب في وقت لاحق عن تجربته وطلب من الفنانين تصوير المشاهد التي وصفها. يظهر أعلاه مقاتل من المارون كما هو مبين في عمل ستدمان. (الجامعة الأمريكية)

ولكن الكثير من هؤلاء العبيد كانوا أقوياء ودافعوا جيدًا عن حقوقهم بحيث جعلوا الأوروبيين يوقعون معاهدات سلام معهم. لا يزال إلى يومنا هذا يعيش أحفاد بعض المجتمعات المارونية على الأراضي التي لم يتمكن أسياد السكر أبدًا من الاستيلاء عليها.

المراقِب

كان توماس ثيستلوود يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا عندما وصل إلى جامايكا عام]. في ذلك الوقت، كان حوالي 17,000 شخص يعدون من البيض يعيشون هناك، بالإضافة إلى 7000 شخص كانوا يسمون بالملوَّنين أو السود الأحرار والذين كانوا أشخاصًا منحدرين من السود والذين يملكون بعض المال أو الحقوق القانونية؛ أما بقية السكان، أي حوالي 170,000 شخص، فكانوا عمالًا مستعبدين، ولد كثير منهم في أفريقيا وتم بيعه مؤخرًا في سوق الرق. كان على المراقب مثل توماس أن يكون مرعبًا بحيث لا يفكر العبيد الذين يعملون تحت إشرافه بالمخاطرة بالهرب أو القتال ضده، وأن يكون على يقين من أن الناس يخشون من لون بشرته أكثر من أن يتوقوا إلى نيل الحرية، وكما أوضح إكيانو، "إن هؤلاء المراقبين كانوا معظمهم أسوأ الأشخاص الذين يمكن إيجادهم في أي طائفة في جزر الهند الغربية". كان هذا صحيحًا، ولكن هذه فقط نصف الحقيقة، ذلك أن طغيان المراقبين كانت نتيجة حياة غريبة تحت سيطرة سادة السكر.

كان صاحب مزرعة السكر يمتلك منزلًا يسمى البيت العظيم عادة ما يكون مبنيًا فوق تلة؛ حيث يتسلل إليه النسيم الاستوائي، وتوفر نوافذه المفتوحة نوعًا من التكييف؛ مما يجعل حتى أكثر الأيام سخونة ممتعة. هذه المنازل الكبرى بغرفها العالية الباردة، وأثاثها الماهوجني المصقول، والخدم الذين ينتقلون في أروقتها، تم بناؤها لإظهار القوة والثروة، كان مالك المزرعة أشبه بملك يحكم إمبراطورية من السكر.

يمكن أن يجلس مالكي البيت العظيم فيه على الشرفات، وإراحة أرجلهم على الكراسي الخاصة المصنوعة لأحذيتهم المطاطية العالية، وشرب الرَم، بينما يعمل عبيدهم في حقول القصب الشاسعة. كان يتم استيراد أثاث تلك المنازل من الخارج، إلى جانب جميع وسائل الراحة الأخرى، والفضيات، والكراسي المغطاة بالحرير، والأواني الخزفية.

وحتى يومنا هذا، يمكن رؤية بعض البيوت العظيمة من المزارع القديمة على قمم التلال في جميع أنحاء منطقة بحر الكاريبي؛ ولكن الشيء الغريب أن الذين بنوا هذه البيوت قلما سكنوها؛ إذ إنهم بمجرد تحقيق الأرباح الكافية كانوا يعودون هم وأسرهم إلى أوروبا.

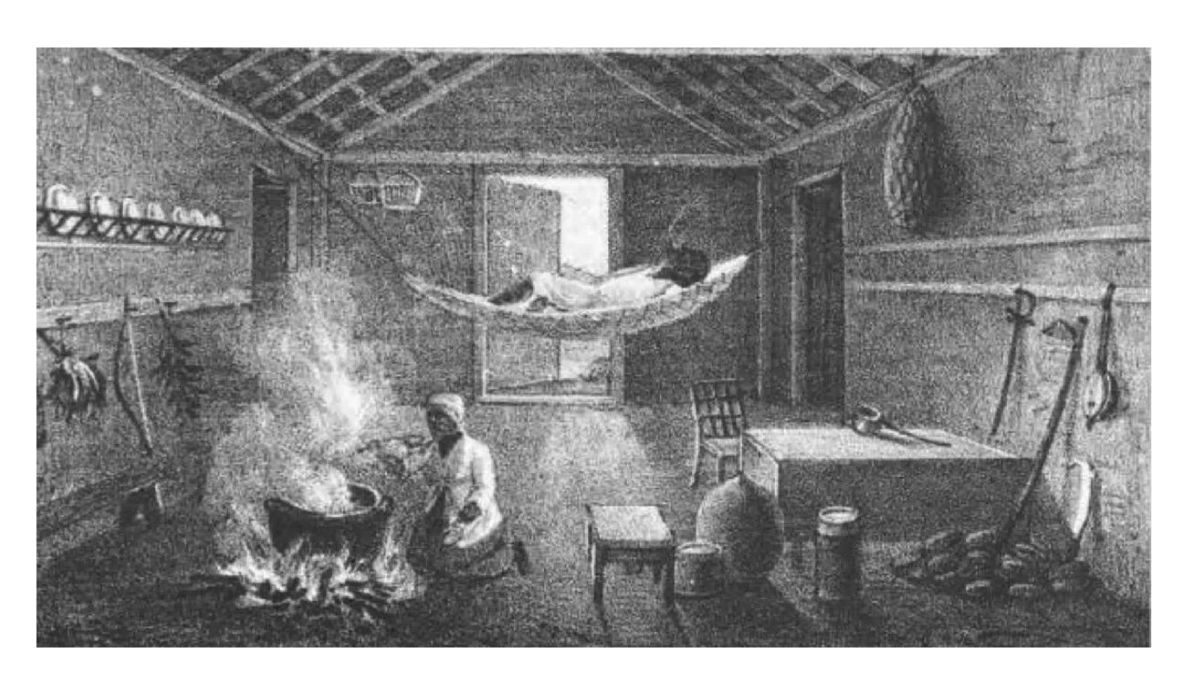
يمكن إيجاد أصحاب المزارع في الروايات الإنجليزية الكلاسيكية، كما في رواية جين أوستن "مانسفيلد بارك"، كانوا يستقرون في منازلهم الإنجليزية ويشاهدون من خلال دفاتر حساباتهم، كيف هو محصول السكر في منطقة البحر الكاريبي. في حين كان يتمتع السادة بحياة الثراء في أوروبا، كان المراقِب يتولّى الإشراف على الروتين اليومي للعمال. لم يتمتع المشرفون بأي مستوى من التعاطف أو الرحمة مع العمال.

تعلَّم ثيستلوود درس الرعب في وقت مبكر عندما رأى سيده يقبض على عبد هارب، فضربه بالسوط أولًا، ثم فرك مكان الجروح بالملح، والفلفل، والحامض. كان هذا النوع من القسوة متّبعًا في جامايكا، وكان ثيستلوود يسميه "التخليل" ومارسه شخصيًّا في كثير من الأحيان. في الواقع، استمر السادة في ممارسة ما هو أبعد من كل حدود الإنسانية، وقد شاهد كل ذلك وتعلم منهم، عندما كان يقرر أن العبد يستحق العقاب، كان يبتكر أشكال جديدة من التعذيب، ويجربها. فعلى سبيل المثال، قام

ثيستلوود لمعاقبة أحد العبيد بتكميمه وتكبيل يديه وقدميه، وفرك جسده بدبس السكر وتعريضه عاريًا لكل أنواع الحشرات نهارًا، والبعوض ليلًا؛ ولكن حتى هذا لم يكن أسوأها.

إذا كان بإمكاننا القول إن ثيستلوود قام برعاية أي شخص، فإن هذا الشخص كان فيباه، المرأة المستعبدة التي عاش معها لسنوات عديدة، وحررها بإرادته؛ لكنه كان يحكم قبضته القاسية على عبيده، ذكورًا وإناثًا؛ لذلك كان يأخذ أي امرأة تروق له، كانت تعمل لديه 138 امرأة مستعبدة، ولم يكن لدى النساء ولا أزواجهن أو إخوانهن أو أولياء أمورهن أي رأي في هذه المسألة. كانت تلك العلاقات الشر الحقيقي لمزرعة السكر؛ فالسيد يمكن أن يفعل أي شيء يريده، ولا يمكن للعبد أن يقاومه. كان ذلك هو الجحيم بعينه.

أفاد إكيانو أن عمال السكر كانوا يتمكنون أحيانًا من الحصول على جزء من الحصاد لبيعه في السوق المحلية؛ ولكن "لا شيء أكثر شيوعًا من رؤية البِيض في هذه المواقف وهم يأخذون المحصول دون دفع"؛ كون



في حين أن السادة قاموا ببناء بيوت عظيمة كانوا يأملون عدم الاضطرار لاستخدامها، كانت حياة العبد كلها محصورة في غرفة واحدة. ظهرت هذه اللوحة التي تبين «منزل عبد » في جامايكا عام 1823 في كتاب يدافع عن الرق؛ لذلك حاول الفنان جعل المشهد يبدو نظيفًا، وأنيقًا، وهادئًا قدر الإمكان. (كرينريك ويليامز، رحلة عبر جامايكا عام 1823 ؛ المكتبة البريطانية)

العبيد لا حقوق لهم، ولا خوف يعتري السادة من ذلك، والأسوأ من ذلك أن الرجال كانوا يعتدون على النساء اللواتي يحاولن جني بعض المال، ويتركوهن "فقيرات، وبائسات، وعاجزات".

كانت مزارع السكر أشبه بجحيم بسبب العمل المطلوب من العبيد والذي لا يبدو أن هناك نهاية له؛ كانت جحيمًا بسبب العديد من المخاطر والإصابات التي تسببت بها؛ كانت جحيمًا لأن العبيد

الذين عملوا دون توقف لم يحصلوا على شيء مقابل عملهم، سوى أن يعيشوا يومًا آخر، ليعملوا أكثر؛ ولكن لم يكن أي من هذه العوامل السبب الأقوى لكون المزارع جحيمًا لا يطاق.

كانت المزارع كذلك لأن السادة والمراقبين كانوا يُعامَلون كالآلهة؛ بينما هم لم يكونوا في الحقيقة سوى شياطين. قال المؤرخ الإنجليزي لورد أكتون الشهير: "تميل السلطة إلى الفساد، وتؤدي السلطة المطلقة إلى فساد مطلق". إنه الوصف الأمثل لجحيم السكر. كان الرجال الذين تم منحهم

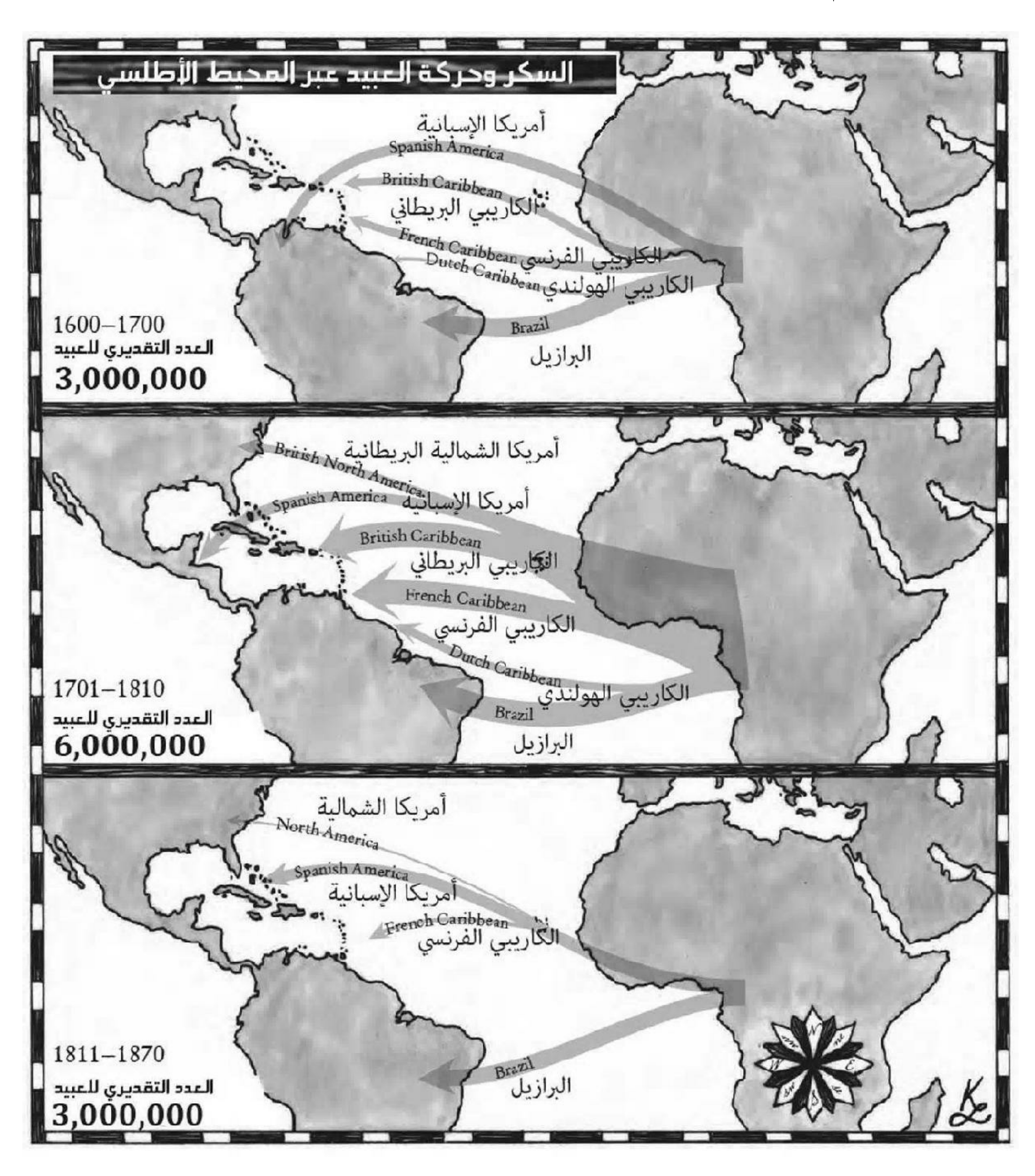


توضح هذه الصورة التي تظهر عبدًا مكبّ بالسلاسل من الرقبة وسيدًا يحمل سوطًا، واقعَ مزارع الكاريبي. قام فريدريش كامب بتصوير المطبوعات الحجرية في أواخر القرن الثامن عشر، وهو فنان ألماني يروي لنا قصة ثانية: العبد رجل قوي الجسد ويشبه الإنسان، والسيد كائن شاحب ودموي، كما لو كان شبحًا أو مصاص دماء. هذا الوصف ليس بعيدًا عن الواقع كما يصف توماس ثيستلوود في مذكراته. (مكتبة جامعة هاورد)

سلطة مطلقة على عبيدهم يتعاملون معهم مثل المخلوقات التي نلتقي بها في الكوابيس فقط؛ لم يكن هناك حد لقسوتهم، حتى أنهم فضلوا قتل عبيدهم بدلًا من الشعور بالخوف منهم. كما أوضح إكيانو، فإن جزيرة مونتسرات وحدها كانت "تتطلب 20 ألف عبدًا سنويًّا، فقط لشغل أماكن الموتى

منهم". ولفهم العبودية التي جلبت الأفارقة إلى العالم الجديد، يجب أن تبدأ مع معدل الوفيات في مزارع السكر، فعلى الرغم من أننا كثيرًا ما نفكر بالعبودية باعتبارها مشكلة خاصة بالولايات المتحدة، إلا إن 4% فقط من العبيد المأخوذين من أفريقيا تم جلبهم إلى أمريكا الشمالية، مما يعني أن 96% ذهبوا إلى منطقة بحر الكاريبي في البرازيل، وبقية أمريكا الجنوبية، ومعظمهم للعمل في مزارع السكر.

زاد عدد العبيد في أمريكا الشمالية مع مرور الوقت؛ حيث عاش الآباء هناك وقتًا كافيًا أتاح لهم إنجاب الأطفال. تم جلب نحو 500 ألف من



العبيد، وكان هناك أربعة ملايين من الأمريكيين الأفارقة المستعبدين وقت إعلان التحرير؛ ولكن في جزر السكر، وبالرغم من أنه تم جلب أكثر من مليوني شخص من أفريقيا، لم يكن هناك سوى 670,000 شخص وقت إعلان التحرير. كل هذا الموت، والقسوة، وكل هذا الاعتداء المؤلم كان لغرض واحد وهو إنتاج "الذهب الأبيض".

نعود إلى أوروبا

هل تتذكر هنري الثالث والصعوبات التي كان يواجهها للحصول على بضع أرطال من السكر؟ انتهى ذلك الزمن منذ جلب كولومبوس قصب السكر إلى العالم الجديد؛ إذ غمر السكر كل مكان من الجزر إلى أوروبا. في 1565، في حفل زفاف أميرة برتغالية ونبيل إيطالي في بروكسل، تم عرض الفواكه من جميع أنحاء العالم على طاولة ضخمة، كل حبة مغطاة بشراب مصنوع من السكر. ثمار من أوروبا وأفريقيا وجزر الهند الشرقية مصنوعة من السكر المنحوت، وفي غرفة أخرى كانت هناك طاولة أكبر، حيث صورت التماثيل المصنوعة من السكر الأميرةَ وهي تسافر على متن سفينة إلى أماكن مألوفة، مصحوبة بحيتان ودلافين ووحوش بحرية. تم استخدام نحو ثلاث آلاف قطعة من السكر المنحوت على تلك الطاولة، تبين كل خطوة من رحلتها، وصولًا إلى فيلة وطيور منحوتة من السكر.

أصبح السكر زخرفة مثالية في حفلات الزفاف الملكية، يتم استخدامه بأكبر قدر ممكن. فالأغنياء دائمًا ما يجدون طرقًا لإظهار ثرواتهم – كما فعل الحكام المسلمون مع سكرهم قبل مئات السنين. اعتمدت القوة الحقيقية للسكر على مادة أخرى وهي أوراق مجعّدة نمت في حقول أسام في شمال الهند وجميع أنحاء الصين.. ونعني بهذا الشاي.



قدم البابا كليمنت التاسع مأدبة لزيارة الملكة كريستينا من السويد في 9 ديسمبر 1668 . شغلت مأدبة الطعام بالكامل بمنحوتات مصنوعة من السكر، كما تظهر هذه اللوحة التي رسمها بالألوان المائية بيير بول سيفين.

"أفضل صنف من تشاو"

في عام 1615، كتب السيد ويكهام – وهو رجل إنكليزي – إلى السيد إيتون – وهو صديق يعمل لدى شركة الهند الشرقية في اليابان – يسأله عما إذا كان بإمكانه أن يشتري له "علبة من أفضل نوع من الـ تشاو"، وما كان يسمى "تشاو" لم يكن سوى الشاي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها شخص أوروبي هذا الشراب؛ حيث كان الأوروبيون الوحيدون الذين يعرفون الشاي هم القليلون الذين عملوا في الهند، أو الصين، أو اليابان. كانت البرتغال تسيطر على مدينة بومباي التجارية؛ لذلك كان للبرتغاليين السبق في الاستمتاع بهذا المشروب. عندما تزوج شارل الثاني عام 1662 من كاثرين براغانزا، وهي أميرة برتغالية، جلبت الشاي كجزء من مهرها.

ما فعله الملك والملكة تم تقليده بسرعة؛ فقد اشترى مديرو شركة الهند الشرقية 20 ألف رطل من الشاي عام 1687، واثقين من أن الشركة سوف تنجح في بيعه في إنجلترا، وكان التجار على حق؛ فبحلول عام 1711، كانت الشركة تنقل 200 ألف رطل من الشاي سنويًّا إلى إنجلترا، وبعد أربعين عامًا فقط، وصل إلى ثلاثة ملايين رطل. عندما قال أطباؤهم إن الشاي كان جيدًا لصحتهم؛ أصبح الإنجليز يشربون ما يصل إلى خمسين كوبًا في اليوم. ورغم ذلك، وبحلول عام 1770، كان الـ 1.75 مليون شخص في أمريكا الشمالية يشربون شايًا أكثر من الخمسة إلى ستة ملايين إنجليزي، ويرافق كل كوب من الشاي عدة ملاعق من السكر.

يتم تقديم الشاي عمومًا دافئًا، ويمكن أن يكون له العديد من الروائح الممتعة أو المحفّزة؛ ولكن يبقى الشاي عادة في حد ذاته مرًّا، كما كان هناك اثنان من المشروبات الجديدة الأخرى التي جاءت إلى أوروبا في القرن السابع عشر وهي القهوة والشوكولاتة الساخنة، افتتح رجل تركي أول مقهى في إنجلترا عام 1652. كان الناس خارج أوروبا، كأماكن مثل الصين والجزيرة العربية والمكسيك يتمتعون بالمشروبات الساخنة كما هي؛ ولكن في أوروبا، أضيف السكر إلى المشروبات الثلاثة الجديدة، وهكذا بحلول عام 1700، أصبح السكر عنصرًا أساسًا في إنجلترا، وهولندا، وأمريكا الشمالية، ولكل من لديه القليل من المال.

في أوائل عام 1700، كان الشخص العادي في إنجلترا يستهلك ما يقدر بـ 4 أرطال من السكر سنويًّا، وبعد قرن من الزمان كان يستهلك ثمانية عشر رطلًا. وبعد مائة عام، زادت كمية السكر التي يستخدمها الشخص الإنجليزي بنسبة 450%.

كان من المتوقع بحلول منتصف عام 1800 أن يكون في كل منزل إنجليزي أطباق لتقديم الشاي مع السكر عدة مرات في اليوم. هذا التوضيح هو من كتاب السيدة بيتون، الذي نشر عام 1861 وأصبح مصدرًا مهمًّا لربات البيوت الإنجليزيات. (المكتبة البريطانية)

1750، كانت هذه الأداة المصنوعة من الفضة تستخدم لقطع السكر. كما هو موضح في اللوحة، أصبح السكر عنصرًا مهمًّا لأولئك الذين يتوقون إلى عرض ثرواتهم وذوقهم. (متحف فيكتوريا وألبرت)

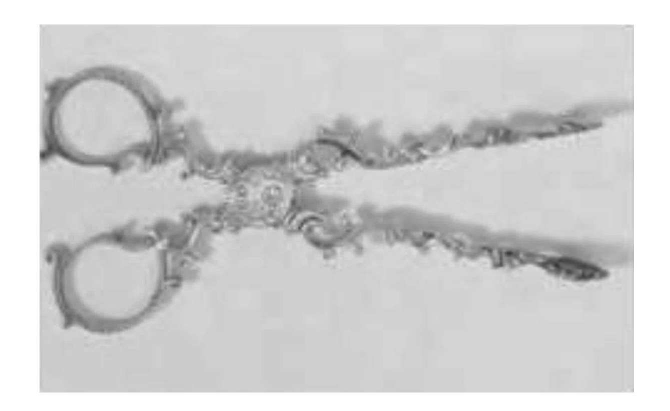


لوحة تعود لعام 1727 ، وتُظهِر فيها عائلة في إنجلترا ثروتها ووضعها الاجتماعي من خلال تقديم الشاي المناسب مع

أدوات مختارة بعناية مثل طبق السكر، وعلبة الشاي، وملقط السكر. (ريتشارد كولينز، عائلة من ثلاثة في جلسة شاي / متحف فيكتوريا وألبرت)



كان من المتوقع بحلول منتصف عام 1800أن يكون في كل منزل إنجليزي أطباق لتقديم الشاي مع السكر عدة مرات في اليوم. هذا التوضيح هو من كتاب السيدة بيتون، الذي نشر عام 1861 وأصبح مصدرًا مهمًّا لربات البيوت الإنجليزيات. (المكتبة البريطانية)



1750 ، كانت هذه الأداة المصنوعة من الفضة تستخدم لقطع السكر. كما هو موضح في اللوحة، أصبح السكر عنصرًا مهمًّا لأولئك الذين يتوقون إلى عرض ثرواتهم وذوقهم. (متحف فيكتوريا وألبرت)

منذ عام 1750، غيّر السكرُ أسلوب أكل الأوروبيين؛ فبدأ الطهاة الذين خدموا الأثرياء بتقسيم وجبات الطعام؛ حيث كان السكر يستخدم سابقًا إما كديكور – كما هو الحال في المناسبات أو حفلات الزفاف – أو كتوابل لإضافة نكهات إلى جميع الأطباق؛ بينما الآن تمت إزالته من وصفات اللحوم والأسماك والخضروات بالمقارنة مع مكانته الخاصة في أطباق الحلويات. تم اختراع فكرة أن تكون الوجبات السكرية خاتمة حلوة للوجبة؛ لأن الكثير من السكر كان متاحًا، ورغم هذا لم يكن الأثرياءُ

الوحيدين الذين تغيرت وجباتهم؛ فقد أصبح السكر غذاءً وضرورةً وأساسًا للنظام الغذائي لأفقر العمال في إنجلترا.

تقليديًّا، كان العمال الإنجليز يقومون بتخمير البيرة الخاصة بهم، ويشربونها مع الخبز، مصدرهم الرئيس الآخر من المواد الغذائية. لاحظ كاتب اسكتلندي في أواخر القرن الثامن عشر أن الشاي "أصبح بديلًا اقتصاديًّا عن الخمور بالنسبة للطبقات الوسطى والدنيا من المجتمع"؛ حيث إن "الشاي الذي كان يتعين نقله من آسيا، والسكر الذي يتم جلبه من جزر الهند الغربية... يؤلف مشروبًا لذيذًا أرخص من البيرة". أصبح هذا الشراب الجديد ليس فقط رخيصًا ولكنه ضروريٌّ.

لماذا احتاج الإنجليز – على وجه الخصوص – مشروبًا ساخنًا مُشبعًا ومنخفض التكلفة؟ يكمن الجواب في كلمة واحدة وهي المصانع. كانت

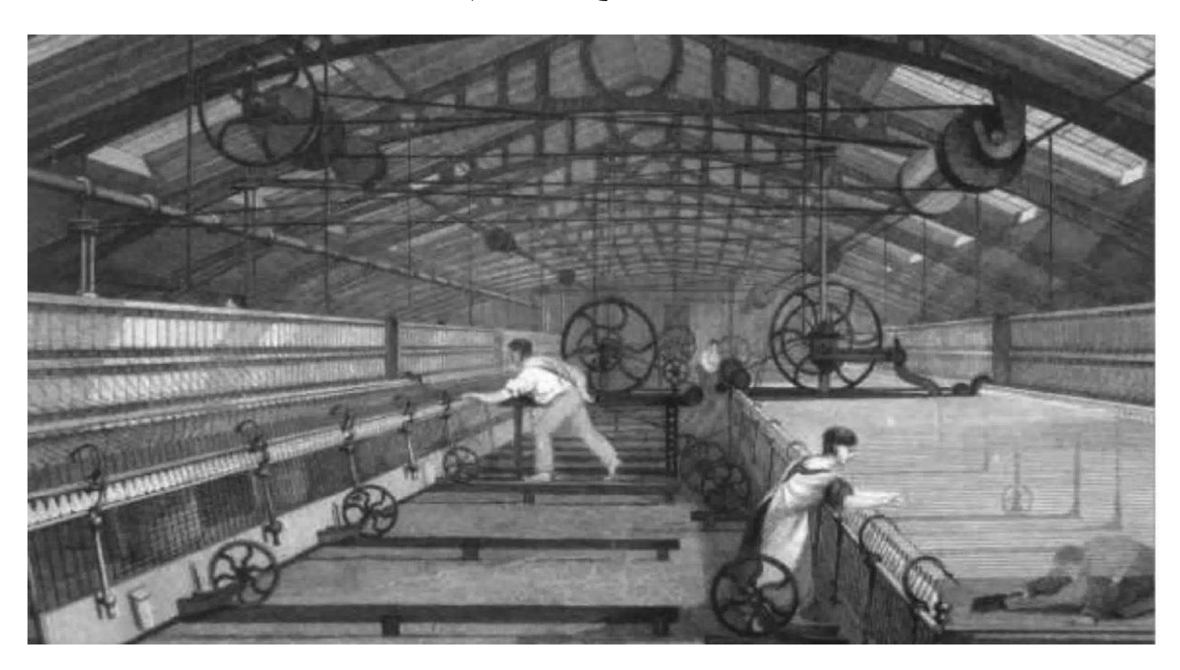


1837 ، رسم توضيحي لجورج كروكشانك في كتاب من تأليف تشارلز ديكنز، الشاي المحلى بالسكر يباع في شوارع لندن. تغير السكر من مادة فاخرة إلى ضرورة مطلقة. (المكتبة البريطانية)

إنجلترا أول دولة في العالم تتحول من تحقيق معظم الأرباح من أماكن تقليدية، مثل المزارع أو المناجم أو المتاجر الصغيرة، إلى المصانع. في أوائل القرن التاسع عشر، اكتشف الإنجليز كيفية بناء آلات لنسج القماش، وكيفية تدريب العمال حتى يتمكنوا من تشغيل الآلات. وقد أصبح عمال المصانع يحتاجون إلى مغادرة منازلهم للذهاب إلى العمل، وليس كما كانوا سابقًا في المزارع حيث يمكنهم زراعة طعامهم الخاص، أو في المتاجر حيث يمكنهم التوقف عندما يريدون تناول وجبة خفيفة،

فقد كانوا يعملون معًا في نوبات طويلة، مع أخذ استراحات عندما يُسمح لهم؛ لهذا احتاج عمال المصانع أغذية رخيصة يسهل نقلها، وتمنحهم الطاقة حتى موعد الاستراحة القادمة.

عندما كانت صافرة المصنع تصدح في جميع أنحاء إنجلترا، في مدن مثل مانشستر وليفربول؛ كان العمال يخرجون لشرب كوب سريع من الشاي



كانت المصانع الأولى أماكنَ مثل هذا المصنع المخصص لنسج القطن. اللوحة مرسومة في إنجلترا عام 1835 . لا يمكن للعمال اختيار وقت التوقف عن العمل؛ لذلك عندما يأخذون قسطًا من الراحة يكونون بحاجة إلى جرعة سريعة ورخيصة من الطاقة، والتي كانت تأتي على شكل كوب من الشاي المحلى بالسكر والكعك. كانت استراحة الشاي واحدة من الطرق التي ربطت بين العالم الوحشي للسكر والعبيد في المزارع وإيقاع العمل الجديد للمصنع الصناعي. (المكتبة البريطانية)

المحلّى بالسكر، وعادة ما كانوا يغمسون قطعة من الخبز في المشروب الدافئ، وسرعان ما اكتشفت الشركة المصنعة الذكية أن هذه الاستراحة، والحاجة إلى دفعة من السكر، كانت فرصة؛ فعرضت على العمال الإنجليز الكعكَ السكري والحلويات، هي أقرب لما نسميه اليوم ألواح الحلوى الغنية بالطاقة، والتي ساعدت العمال على الاحتفاظ بطاقتهم خلال نوبات العمل الطويلة. وابتداءً من عام 1800 أصبح السكرُ الغذاءَ الرئيسَ الذي ساعد المصانع الإنجليزية – أكثر الاقتصادات تقدمًا في العالم – على العمل. وفّر السكرُ الطاقةَ والتغذية والطعم الحلو المنسجم مع دفء الشاي، والذي جعل حتى أفقر عامل في المصنع يتوق إليه. لماذا كان الإنجليز هم أول من أنشأوا مصانع القماش؟ كان ذلك بسبب الثروة التي اكتسبوها، والروابط التجارية التي قاموا بها، والنظم المصرفية التي طوروها في تجارة الرقيق والسكر. في الواقع، كان القماش الرخيص من المصانع يستخدم لإلباس العبيد، يمكنك القول إننا نؤمن بأن هذه المصانع تم بناؤها، وتشغيلها، ودفع ثمنها بالسكر.

في عام 1800، عندما كان الإنجليزي يستهلك ثمانية عشر رطلًا من السكر سنويًّا، تم إنتاج حوالي 250000 طن من السكر في جميع أنحاء العالم، وأرسلت كلها تقريبًا إلى أوروبا. بعد قرن من

الزمان، في عام 1900، عندما كان السكر يستخدم في المربى والكعك والشراب والشاي، وكان في كل بلد حديث عدة مصانع؛ بلغ الإنتاج العالمي للسكر ستة ملايين طن، وبحلول ذلك الوقت، كان الشخص العادي في إنجلترا يأكل تسعين رطلًا من السكر سنويًّا، وفي أوائل القرن العشرين استمر هذا العدد في الارتفاع. يستهلك الأمريكيون اليوم حوالي 40 رطلًا من سكر القصب سنويًّا فقط، وسبب ذلك أشكالٌ أخرى من المحليات، مثل شراب الذرة، وهي الآن أرخص من سكر القصب. إذا وضعنا في الاعتبار جميع أشكال التحلية، فمتوسط ما يستهلكه الأمريكيون هو 140 رطلًا كل عام).

عصر السكر

بحلول عام 1800، كان من الواضح أن عصر السكر، ذلك المزيج من الاستعباد والمصانع والتجارة العالمية، كان يحل محلَّ عصر العسل، يوم كان الناس يتناولون الأطعمة المحلية، ويعيشون على أرض أجدادهم، ويفضلون التقاليد على التغيير. كان السكر منتج العبد وقهر عاملِ المصنع الفقير، حيث تجتمع بربرية المشرفين مثل توماس ثيستلوود وجمود الاقتصاد الجديد؛ ولهذا السبب نفسه، أصبح السكر أيضًا نقطة الوصل في النضال من أجل الحرية.

عندما نتحدث عن العبودية الأطلسية، لا بد أن نصف جحيم السكر؛ ولكن هذا ليس سوى جزء من القصة. كان الأفارقة في صميم هذا التغيير الكبير في الاقتصاد؛ بل في حياة الناس في جميع أنحاء العالم، فالأفارقة هم المواطنون العالميون الحقيقيون الذين تكيفوا مع أرض جديدة، وديانة جديدة، وحتى مع أفارقة آخرين لم يلتقوا بهم قط في أوطانهم. إنَّ عملهم هو الذي جعل عصرَ السكر – العصر الصناعي – ممكنًا؛ لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الذين تم استعبادهم على أنهم مجرد ضحايا، بل بوصفهم فاعلين، ومنطلقَ العالم المترابط الذي نعيش فيه جميعًا اليوم. بالفعل، عندما بدأ الأفارقة المستعبدون بالتعبير عن أنفسهم بالكلمات والأفعال، حينها فقط بدأ الأوروبيون بالنظر إليهم كبشر مثلهم، لقد أصبح السكرُ عصرَ الحرية أيضًا.

الفصل الثالث

الحرية

جميع البشر سواسية

يمكننا القول إن زيارة واحدة لسيدة تُدعى مدام فيلنوف إلى فرنسا عام 1714 قد أحدثت تغييرًا كبيرًا في العالم. في ذلك العام، وصلت بولين وهي امرأة مستعبدة من الكاريبي إلى فرنسا كخادمة شخصية لمدام فيلنوف، وعندما انطلقت مدام فيلنوف لزيارة باريس، تركت بولين في دير؛ قضت الشابة وقتها في الدراسة مع الراهبات وطلبت لاحقًا أن تصبح راهبة وتبقى في الدير فوافقتها الراهبات؛ مما أغضب السيدة فيلنوف؛ فهرعت إلى قاض مطالبةً بإعادة خادمتها. ترى هل كانت بولين امرأةً حرة أم أداةً يتم شراؤها وبيعها وتخزينها عندما لا تكون قيد الاستخدام؟

قبل ثلاثة وعشرين عامًا، أصدر الملك لويس الرابع عشر مجموعة من القواعد التي عرّفت تجارة الرق بأنها قانونية في جزر السكر الفرنسية؛ ولكن عندما تمكن اثنان من العبيد من الوصول إلى فرنسا، أفرج عنهما، وتم إخبارهما أنهما امتلكا حريتهما حالما وصلا إلى أرض فرنسا. وقف القضاة مع بولين، كانت إنسانًا بالنسبة لهم، وليس مجرد قطعة من الممتلكات، أما بالنسبة للملك لويس، فإن العبودية البعيدة عن البحار كانت حسب رأيه تختلف عن استعباد الأفراد في فرنسا. جادل أسياد العبيد مرة أخرى، قائلين إنهم بصفتهم سادة يجب أن يكونوا قادرين على إدراج عبيدهم كممتلكات عند وصولهم إلى فرنسا وأخذهم معهم عند مغادرتهم. وعلى الرغم من أن معظم أجزاء فرنسا وافقت على ذلك؛ إلا إن المشرعين في باريس ترددوا، حين ناصر بيير ليمير الأصغر، (معلم فرنسي كان ناشطا في مجال الحقوق)، العبيد قائلًا بإصرار: "كل البشر متساوون" وذلك في عام 1716، أي قبل ستين عامًا بالضبط من إعلان الاستقلال.

أن يقول أحدهم إن: "جميع البشر متساوون" في 1716، عندما كانت العبودية في أوج ازدهارها في كل ركن من أركان العالم، وكان معظم المزارعين من أوروبا الشرقية يتم بيعُهم إلى جانب الأرض التي كانوا يعملون فيها؛ كان ذلك بمثابة الإعلان عن أن هناك شمسًا جديدةً في السماء. في عصر السكر، حينما كانت العبودية أكثر وحشية من أي وقت مضى، بدأت فكرةُ أن جميع البشر متساوون في الانتشار. كانت فكرةً أطاحت بملوك، وقلبتْ حكوماتٍ، وحوّلتِ العالمَ بأسره.

كان السكرُ العقدةَ التي تربط بين العبودية والحرية؛ فمن أجل إنتاج السكر قام الأوروبيون والمستعمرون في الأمريكتين بتدمير الأفارقة وتحويلهم إلى آلاتٍ. وفي الوقت نفسه كان الأوروبيون أنفسهم يرفضون أن يكونوا أدواتٍ بأيدي الملوك والأمراء. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ لماذا كان الناس يتحدثون عن المساواة بينما لا يتوقفون عن استغلال العبيد؟ الواقع أن الجوع العالمي للسكر المزروع بوساطة العبيد أدى وبشكل مباشر إلى إنهاء العبودية. أدت سنين طويلة من السكر وآلام العبودية مباشرة إلى ولادة الاضطرابات وعصر الثورات؛ حيث نشب الصدام النهائي الكبير بين الحرية والعبودية في أمريكا الشمالية، ثم إنجلترا، وفرنسا، وهايتي، ومجددًا في أمريكا الشمالية.

جميع البشر سواسية: أمريكا

في مساء يوم الأحد، 7 أبريل 1765، قام حشد من رجالٌ من رود آيلاند قد صبغوا وجوهَهم باللون الأسود بتجريدِ سفينة من حمولتها: برميل بعد برميل من الدبس الآتي من جزر السكر، كان هذا قبل ثماني سنوات من تأسيس حركة حزب الشاي في بوسطن، كان البرلمان البريطاني قد فرض ضريبة على السكر دون إعطاء الأمريكيين الشماليين أي صوت في هذا الشأن؛ مما أغضب المستعمرين. وبالنسبة للبريطانيين، فقد عدُّوا مَن هرَّبوا البراميل من السفن حتى لا يضطروا إلى دفع ضريبة السكر – ببساطة – مهربين؛ بينما شعر الأمريكيون أنهم لن يكونوا سوى عبيد إذا لم يقاوموا

قانون الضرائب المجحف؛ فالإنسان الحر حسب اعتقادهم، كان له الحق في التصرف فيما جناه بجهده الخاص، وعقله وإرادته.

من المؤكد أن الرجال الأحرار ملزمون باحترام القوانين؛ ولكن يجب أن يكون لهم رأي أيضًا عند وضع تلك القوانين. لم يكن الأحرار رجالًا مقيّدين بالصمت أو الخنوع؛ بل أصبحوا يتحدثون ويعبرون عن أنفسهم؛ فكان ذلك خطوة كبيرة تنقلهم بعيدًا عن عصر العسل. بالنسبة للأمريكيين، فإن امتلاك الممتلكات والتحكم بها هو الفرق بين الحرية والعبودية، كانوا قد قاوموا فرض أي ضريبة؛ ولكن كان السكر نقطة حساسة بشكل خاص.

استفاد المزارعون الكاريبيون الذين تركوا عبيدهم في أيدي رجال مثل توماس ثيستلوود استفادةً كاملة من العيش في إنجلترا؛ لأنهم كانوا بالقرب من لندن؛ فنجحوا في استخدام ثرواتهم للتأثير على أعضاء البرلمان؛ بل وتمكنوا من تولّي مناصبهم أيضًا، فعلى سبيل المثال، كان وليام بيكفورد المنحدر من عائلةٍ تمتلك أربعًا وعشرين مزرعة سكر في جامايكا، يعيش في إنجلترا ويمتلك ألفي شخص في الجزيرة البعيدة، كان ناجحًا جدًا لدرجة أنه أصبح عمدة لندن وعضوًا في البرلمان، حرص لوردات السكر مثل بيكفورد على التأكد من أن الأمريكيين سيشترون فقط من جزرهم، ولن يتمكنوا من الحصول على سكر أرخص في أماكن أخرى.

في أمريكا الشمالية، لم يتمتع المزارعون الذين يحرثون التربة الصخرية في نيو انجلاند، ولا حتى الفيرجينيون (أهل فيرجينيا الأمريكية) أصحاب مزارع التبغ التي يديرها الرقيق، بذات الفرصة المترفة في أن يوكلوا إدارة أعمالهم لآخرين وأن ينتقلوا إلى لندن.

أراد الأمريكيون الحصول على السكر الرخيص وأن يكونوا قادرين على شرائه من أي مكان؛ لكن لم يكن لديهم صوت في البرلمان؛ مما جعل من الصعب تحقيق ذلك في ظل انحياز البرلمان لمزارعي السكر؛ فشعر الأمريكيون أنهم يتعرضون للغش والإسكات، أو فلنقل، لنوع من الاستعباد.

أصدر البرلمان عام 1733 قرارًا بإضافة ٦ سنتات إلى سعر كل غالون من دبس السكر التي لم يكن مصدرها إنجليزيًّا، ولو خضع المستعمرون آنذاك لهذا القرار لكانت العواقب وخيمة، ولأصبح الدبس المنتَج في الجزر الفرنسية الآن مكلفًا للغاية، ولَمَا استطاع التجار أن يحققوا أرباحًا جيدة؛ وبالتالي كانوا سيضطرون حتما إلى اللجوء إلى الإنجليز لشرائه، والذين



كان وليام بيكفورد، عمدة لندن، مدينًا بثروته لمزارع السكر في جامايكا. كان الأمريكيون على وعي تام بالقوة التي يتمتع بها أمراء السكر في لندن. (مكتبة الكونغرس)



نشرت هذه الصورة لأحد عقارات بيكفورد في جامايكا عام 1778 . من الواضح أن الفنان جورج روبرتسون، أراد أن تبدو اللوحة سلمية وجميلة، بحيث جعل العبيد يبدون سعداء ومتواضعين. (مكتبة الكونغرس)

كانوا بدورهم سيزيدون الأسعار بالتأكيد؛ كان من شأن هذا القرار بكل بساطة أن يشل تجارة أمريكا الشمالية بأكملها مع جزر السكر في حال خضع المستعمرون أو الفرنسيون له؛ لكنهم بالطبع فعلوا العكس.

لم يحقق قرار الدبس شيئًا سوى جعل الأمريكيين مهربين أفضل، ورغم ذلك فقد جُدِّدَ مرارًا وتكرارًا، حتى سنة 1763 الحاسمة، بينما كان قانون الدبس على وشك أن ينتهي، أعلن انتصارُ إنجلترا على فرنسا في حرب السنوات السبع – أما ذلك الجزء من تلك الحرب التي وقعت في أمريكا الشمالية فغالبًا ما تسمى الحرب الفرنسية الهندية –، ولدفع ثمن الحرب؛ قرر رئيس الوزراء خلقَ بعض التشديد في التشريعات، وهو ما أطلق عليه قانون السكر، وهو قانون يهدُف إلى التأكد من أن الأمريكيين يمتنعون عن التهريب ويدفعون ضريبة السكر.

في الوقت الذي وصلت فيه أخبار قانون السكر المشدد إلى مستعمرين من أمريكا الشمالية، كانت ردة فعلهم المباشرة هي الغضب في بوسطن؛ فردت الجمعية العامة بقولها: "إن فرض الضرائب علينا دون أن يكون هناك ممثلٌ قانوني لنا وقت إقرارها، يعني ببساطة نقلنا من بشر أحرار إلى عبيد بؤساء"، كما انضمت جمعيات في نيويورك وكارولينا الشمالية إلى الجمعية احتجاجًا على قانون السكر.

عندما استمع البرلمان إلى سادة السكر؛ شعر المستعمرون بالعجز وكأنهم عبيد. إذا كان بإمكان إنجلترا أخذ ممتلكات الأمريكيين بهذه البساطة فهذا يعني أنهم ليسوا أحرارًا.. وهكذا، عندما كتب توماس جيفرسون، مع جون آدامز وبنيامين فرانكلين، إعلان الاستقلال، شددوا على أن هناك حقوقًا معينة لا يمكن لأي إنسان أن يفقدها: الحياة والحرية والممتلكات، التي هي جزء مما يعنيه "السعي للسعادة"؛ لكن عندما اعتقد جيفرسون أن العبودية شر يأمل أن يختفي؛ إلا إنه كان يرى أن من حقه شراء العبيد وبيعهم. في عصر السكر، دفع الأمريكيون حياتهم للدفاع عما يملكونه؛ لكنهم واصلوا امتلاك الآخرين. كانت المفارقة أن يكون الإنجليزي هو من يسلط الضوء على فكرة أن الإنسان يمكن شراؤه وبيعه.

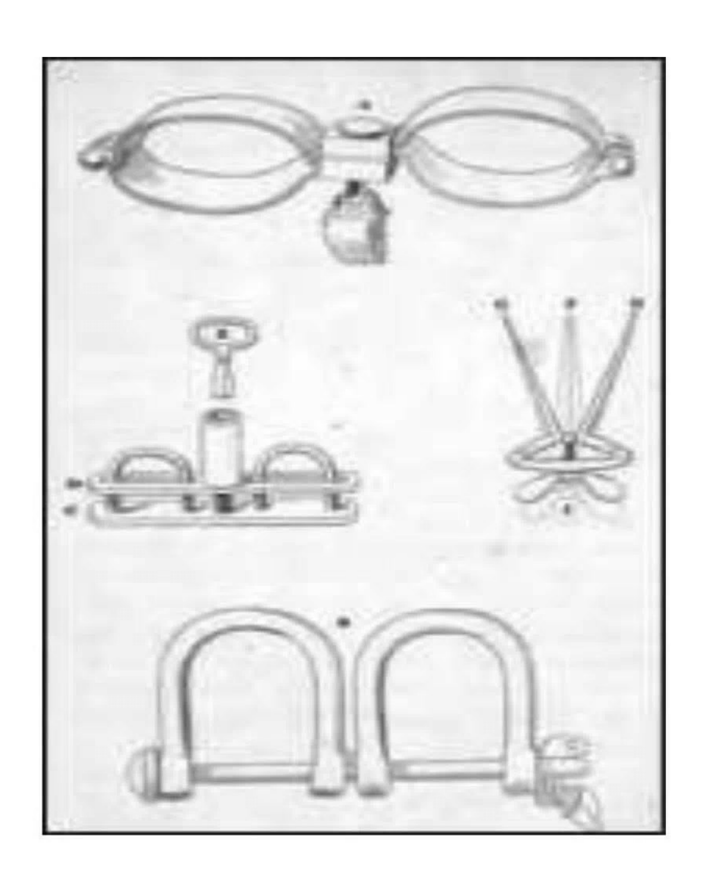
وبدأت كل الحكاية مع واجب مدرسيّ.

"هل جعل الآخرين عبيدًا ضد إرادتهم أمر مشروع؟"

كانت جامعة كامبريدج تمنح جائزة كل عامٍ لأفضل مقال مكتوب باللغة اللاتينية، وقد كان الفوز بهذه الجائزة شرفًا عظيمًا. في عام 1785، قرر الشخص – الذي اختار موضوع المسابقة – استخدامَه كسلاح ضد العبودية؛ فطلب من المتسابقين الإجابة على سؤال: "هل جعل الآخرين عبيدًا ضد إرادتهم أمرًا مشروعًا؟"، وكان توماس كلاركسون جيدًا جدًا في اللاتينية بحيث فاز بالجائزة، وبالرغم من أن هدفه في البداية كان مجرد كتابة مقال فائز؛ إلا أنه آمن شخصيًّا بالأمر في أثناء كتابة المقال، حيث قال: "قفزت إلى ذهني فكرة أنه إذا كانت محتويات المقال صحيحة؛ فهذا يعني أن الوقت قد حان لإنهاء هذه المصائب".

عندما أدرك كلاركسون أنه في كل ثانية من كل يوم كانت هناك أرواح بشرية يتم تدميرها وسحقها دون أن يفعل شيئًا لإيقاف ذلك، خاطر بكل شيء لإلغاء هذه الممارسة الرهيبة. كما أوضح: "كنت أشعر بعدم راحة في نهاري، وعدم استقرار في ليلي؛ بل أحيانًا لم أستطع إغماض عيني بسبب الحزن".

كان الإنجليزي الذي يستهلك حوالي 18 رطلًا من السكر في السنة، لا يعرف سوى القليل عن حياة الأفارقة المستعبدين الذين كان عملهم المضني يحلّي وجباته، والأسوأ من ذلك أن كل إنجليزي قام بتصنيع الأخشاب، أو خياطة الأشرعة، أو صناعة الحبال لسفن نقل العبيد، أو بناء براميل السكر الذي ينتجونه، كسب أمواله من تجارة الرقيق.



يظهر هذا الرسم التوضيحي الأدوات المستخدمة لمعاقبة العبيد وتعذيبهم في السيرة الذاتية لأولودا إكيانو. (المكتبة البريطانية)

كان الإنجليز يزدادون ثراءً، لأنهم تعاملوا مع الأفارقة بصفتهم ممتلكات. أدرك كلاركسون وغيره ممن آمنوا بذلك – والذين سيطلق عليهم في العقود القادمة اسم "الداعون لإبطال العبودية" – أنه حتى لو أن للإنجليز حصةً في هذا الأمر، ستظل هناك فرصةً لمكافحة العبودية، إذا تمكنوا من قلب الوضع وجعْل أولئك الذين استفادوا من تجارة الرقيق يرون أهوالَها، فقد يكونون قادرين على إنهاء هذه الممارسة إلى الأبد. قام الداعون لإبطال العبودية بإنشاءِ حملة علاقات عامة هي الأكثر فاعلية في

التاريخ، واختراعِ تِقْنيات نستخدمها حتى يومنا هذا. عندما تكلم كلاركسون لوّح مهددًا بالسياطِ والأصفاد المستخدمة على العبيد، ونشْرِ شهادات من البحارة والأطباء الذين وصفوا الفظائع والعقوبات التي رأوها على سفن الرقيق.

عندما نشر أولودا إكيانو مذكراته، علم القراءُ عن أهوال تجارة الرقيق؛ بعد ذلك، وعندما بدأ الإنجليز يفهمون ما العبودية حقًا، نظَّم كلاركسون وآخرون ما أسموه مقاطعة "المشروبات المحلاة بالدم".

كان عمل العبيد ذو قيمة لأنه ينتج سكرًا رخيصًا يريد الجميع شراءه؛ ولكن إذا توقف الناس عن شراء هذا السكر؛ فإن نظام الرقيق كله سينهار. في السنوات التي سبقت الثورة الأمريكية، رفضت نساء نيو انجلاند شراء المنتجات الإنجليزية والشاي الإنجليزي؛ فأدى فقدان الدخل إلى إلغاء لندن لبعض الضرائب التي فرضتها على أمريكا. الآن تم استخدام التكتيك نفسه – المقاطعة – لمحاربة العبودية. توقف حوالي 400,000 شخص إنجليزي عن شراء السكر الذى صنعه العبيد وحصدوه وبدلًا من ذلك، بدأوا بشراء سكر يحمل عبارة: "من إنتاج عمال أحرار"، وجاء هذا النوع من السكر من الهند.

عندما كان الإنجليز ينظرون إلى السكر الذي يستخدمونه كل يوم، استطاع كلاركسون وغيره من المناهضين للعبودية جعلهم يرون دماء العبيد الذين قاموا بصنعه. لقد جعلت حقيقةُ السكر الذي يصنعه العبيد تجاهلَ واقع الرق صعبًا على الإنجليز. كان السكر جسرًا – تمامًا مثل الأحذية الرياضية والقمصان والسجاد التي نعلم اليوم أنها مصنوعة من قبل المخازن. إذا كنت راغبًا في شراء هذا المنتج، أجبرك المناهضون للرق والعنصرية على التفكير في كيفية صنعه. أصبحت العبودية والممارسة القديمة قدم الحضارة الإنسانية غيرَ مقبولة، إنها شكل من أشكال التجرد من الإنسانية والتي لم يعد بإمكان الناس تحملها. دخل المستعمرون الأمريكيون في حرب عندما شعروا بأن الإنجليز كانوا يعاملونهم كعبيد؛ لكنهم تركوا حل مشكلة عبيدهم في وقت لاحق. أصبح هناك من يتحدث لصالح العبيد في إنجلترا، وبعدها تسللت نار الثورة إلى فرنسا.



in a dreadfully lacerated state. The gangs thus disposed, their work begins, and continues without intermission for a certain number of hours, during which, at the peril of the driver, an adequate portion of labour must be performed.

It is the business of the driver, not only to urge forward the whole gang with sufficient speed, but to watch that all in the line, whether male or female, old or young, strong or feeble, work as nearly as possible in equal time, and with equal effect.

It almost necessarily follows, that the weak will be hard pushed to keep up with the strong; and from this cause many negros are hurried to the grave.



كانت النساء في اجتماعات الجمعية النسائية في برمنغهام يجتمعن لخياطة أكياس مزينة بصور مناهضي العنصرية. في حين أن العديد من الجماعات التي ألغت عقوبة الإعدام كانت تفضل اتباع نهج تدريجي لإنهاء الرق، إلا أن نساء برمنغهام قرأن وناقشن حجة إليزابيث هيريك (محسنة إنجليزية كانت

تنشط في مناهضة العبودية) بأنه يجب تحرير جميع العبيد في آن واحد. (متحف فيكتوريا وألبرت)



يوضح هذا النموذج كيف كان يتم ارتداء حقيبة مكافحة العبودية وإدانة الذين لا يفكرون في سعر الدم المدفوع لإنتاج السكر الذي يضيفونه للشاي. (متحف فيكتوريا وألبرت)



جميع البشر سواسية: فرنسا

لم يكن هناك برلمان أو كونغرس في فرنسا، ولم يتوقع أحد أن يكون قادرًا على حماية حقوقه

بالتصويت؛ ولكن رغم ذلك طالب الشعب بأن يُسمع إليه حتى في أرض الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت، فاقتحم الباريسيون الباستيل في يوليو 1789، وهو السجن الذي كان يحبس فيه الملك أي شخص لم يرق له. في آب/أغسطس، أصدرت الجمعية الوطنية الجديدة إعلان حقوق الإنسان والمواطن: "يولد الرجال ويظلون أحرارًا ومتساوين في الحقوق". بزغت مجددًا عبارة بيير ليمير، وعبارة جيفرسون، والمبدأ الذي ناضل لأجله كلاركسون، وكأنها جاءت إلى فرنسا لدعم الحكومة الجديدة؛ لكن بالإضافة لذلك، كان الإعلان ينص أيضًا على أن "الملكية حق مقدس لا يمكن انتهاكه"، فإذا كان الأمر كذلك فماذا يكون العبيد؟ بشر كغيرهم؟ أم سلع تخص أصحابها؟

حقوق الإنسان مقابل حقوق الملكية، هذا الجدل مستمر إلى اليوم، فنناقش – مثلًا – مدى تنظيم صناعة استخراج الفحم، هل من الأفضل السماح للملاك بوضع القوانين التي من المرجح أن توفر لنا جميعًا فحمًا أرخص، أم الأفضل أن ندع الحكومة تضع المعايير التي ستعنى بحماية العمال والبيئة؟ في فرنسا، جادل طرف بأنه يجب تحرير العبيد، فرد الطرف الآخر إن أي تغيير في جزر السكر سيثير ثورات العبيد، ويساعد خصوم فرنسا، وبالتالي يضر بالأمة.

أعطت الثورةُ في الولايات المتحدة الجديدة الملّاكَ البيضَ إحساسًا بالحرية، بينما كان الأفارقة لا يزالون مستعبدين. وفي إنجلترا، دافع مناهضو العبودية عن الأفارقة؛ ولكن الملوك والأرباب كانوا لا يزالون يحكمون. وفي فرنسا، كان الثوار يتحولون ضد النبلاء؛ ولكنهم بقوا غير متأكدين مما يعنيه هذا بالنسبة للأفارقة المستعبدين في جزرهم السكرية. كان عصر الثورات يشدد على أفكار الحرية ضد حقوق الملكية، ولم يكن أحد متأكدًا إلى أين ستقود هذه الاشتباكات؛ ففي فرنسا الثورية، بدأ المدافعون عن العبيد يفوزون على مناصري حقوق الملكية، وبحلول خريف عام 1791، أصدر الفرنسيون قانونًا يجعل السود الأحرار والأشخاص ذوي الخلفيات المختلطة في جزر السكر مساوين قانونيًّا لجميع الفرنسيين الآخرين، ورغم ذلك لم يكن هذا الخبر سارًا لكلاركسون وحلفائه في إنجلترا؛ لأنه حتى مع قيام الثوريين في فرنسا بسن القوانين الإنسانية، كانوا يتبعون أسلوب معاقبة أمرائهم ونبلائهم باستخدام المقصلة.

ومع بدء تدفق الدم في شوارع باريس، صار لأصحاب العبيد في إنجلترا والأمريكتين دفاعًا مثاليًّا: إذا تورطت مع حقوق الملكية، وإذا حررت العبيد، وإذا غيرت أي شيء في الحكومة، فإن النتيجة لن تكون إلا الفوضى والرعب. وبحلول التسعينيات من القرن الثامن عشر، كان مناهضو العبودية الإنجليز يفقدون شعبيتهم وزخمهم وأملهم؛ ونتيجة لذلك، جعلت الفوضى في فرنسا تجارةَ الرقيق الإنجليزية وجزرَ السكر أكثر ربحية، ثم بدأ صوت جديد يظهر من أكثر جزر السكر ربحية، تلك الأرض التي جلب إليها كولومبوس أول نبتة سكر.

صوت الحرية

بحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت سانت دومينغ (هايتي حاليًا) المركزَ العالمي للسكر. انتشرت الكثيرُ من مزارع السكر في الأراضي التي يطلق فيها على عبيدٍ يديرون عبيدًا آخرين قادةً. في ليلة 14 أغسطس 1791، تجمع قادة أغنى مزارع السكر في سانت دومينغ في مكان يسمى

أليغاتور وودز وأقسموا أنهم سيثورون ضد السادة البيض''، والاستماع إلى صوت الحرية الذي يصدح في قلب كل واحد منا ''. شجعهم هذا الصوت على تدمير كل ما له علاقة بالسكر. جعل السكرُ الأفارقةَ عبيدًا؛ لذلك يجب أن يُزال السكر من الجزيرة.

بحلول نهاية آب/أغسطس، كانت المستعمرة الفرنسية مشتعلة، والنار تستعر في العديد من حقول القصب بحيث بدا الهواء مليئًا بـ ''مطر من النار من جراء القطع المتناثرة التي بدت كرقائق الثلج السميكة''. قام الثوار بتحطيم المطاحن، وتدمير المستودعات، وإضرام النار فيما لا يقل عن ألف مزرعة، وكان ذلك كله في الشهرين الأولين فقط من الثورة، وسرعان ما أصبح للكفاح ضد السكر والقيود زعيمٌ – توسان – الذي أطلق على نفسه اسم ''لوفيرتور – أي الفتح –؛ كان توسان يفتح فضاء الحرية للناس.

لم يكن العبيد في سانت دومينغ يقاتلون ضد الظروف الرهيبة في الجزيرة فحسب؛ بل كانوا يقاتلون من أجل مبادئَ تعلموها من الأوروبيين والأمريكيين، من أشخاص مشابهين لأسيادهم. هناك ثلاثة مبادئ عظيمة وراء الثورة الفرنسية التي بدأت في 1789 وتتألف من: ''الحرية، المساواة، والأخوَّة''، ومع وصول القوارب إلى سانت دومينغ من فرنسا، علم العبيدُ أن هناك ثورةً قائمة باسم حقوق الإنسان؛ ولكنهم كانوا بالفعل قد ذاقوا طعم التغيير بسبب ثورة أخرى كانت أقرب إلى الوطن، ففي عام 1779 ذهب فوج من السود الأحرار من سانت دومينغ إلى أمريكا للانضمام إلى الكفاح من أجل نيل الاستقلال؛ فجلبوا معهم فكرة أن ''كل البشر متساوون''.

بعد عامين من الاجتماع في أليغيتور وودز، وتحديدًا في 29 أغسطس 1793، أدرك المسؤول الفرنسي الرئيس في سانت دومينغ أنه لا توجد فائدة من معارضة توسان وجيوشه، وكان العبيد قد أطلقوا سراح أنفسهم، ثم لاحقًا في فبراير أعلنت باريس موافقتها على الأخوّة التي أعلن عنها ثوار باريس التي شملت أخيرًا عمال السكر في سانت دومينغ، وبانتصارهم أعلن شعبُ سانت دومينغ انتهاءَ الصراع بين الحرية والممتلكات: ''كل البشر سواسية'' يعني أن البشر ليسوا ممتلكات، أزعجت هذه الفكرة الإنجليز؛ لأن جزر السكر التابعة لها في جامايكا كانت تبعد ما يزيد قليلًا عن مئة ميل عبر المياه من سانت دومينغ.

في الواقع بدأ العبيد يغنون في جامايكا أغنية جديدة وهم يعملون:

واحد اثنان ثلاثة،

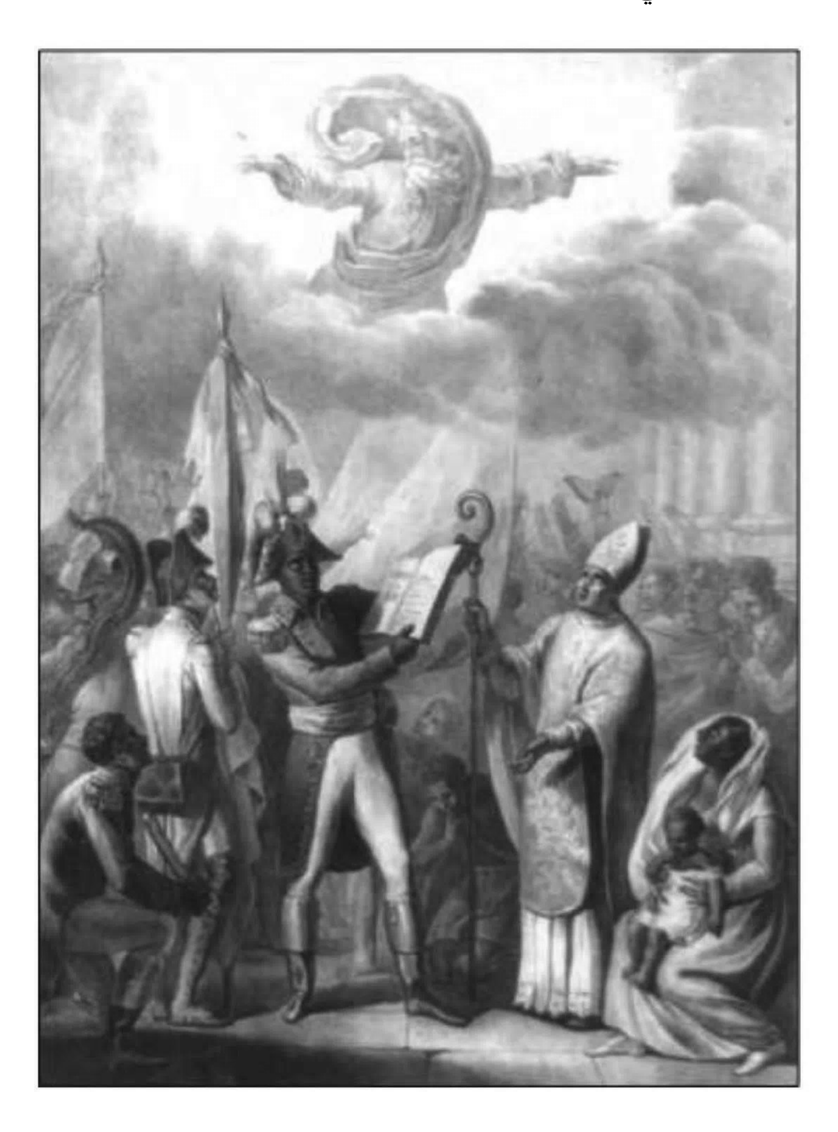
الكل سواسية؛

أسود، أبيض، بني،

الكل سواسية!

شكلتْ هذه الأنشودة تحديًا مؤثرًا؛ حيث كانت جامايكا قد رأت بالفعل العديد من ثورات

العبيد، وكان القديس جون ليندسي واثقًا من أن الحديث



عن الحرية في أمريكا الشمالية قد ألهم العبيد: "أخشى أننا بينما كنا نجلس حول طاولاتنا – حيث لكل شخص خادم خاص به يقف وراءه – أهملنا حساسية بعض المواضيع التي تحدثنا عنها، خاصة عندما كان الحديث متعلقًا بالتمرد الأمريكي.. والبطولة الشريفة"؛ لكن لم يكون العبيد بحاجة إلى استراق السمع من أسيادهم لمعرفة المزيد عن المساواة؛ إذ كان البحارة السود الذين يعملون في السفن التي تجوب جميع الجزر يقومون بمهمة نقل الكلمة، وإذا خرجت روح الحرية هذه عن السيطرة، فقد يكون ذلك خطرًا حقًا. بكل حال، في إنجلترا نفسها فقط 3% من السكان لديهم الحق في التصويت. إذا انتشرت هذه الفكرة الموسعة عن الحرية، ماذا يضمن سلامة الملوك والنبلاء والفرسان في إنجلترا؟ بدءًا من خريف 1793، بدأت القوات البريطانية تصل إلى سانت دومينغ لإعادة استعباد الناس وإعادتهم إلى مزارع السكر، وكما قال هنري دونداس، وزير الحرب البريطاني آنذاك، فإن هدفهم هو "منع تداول المستعمرات البريطانية للعقائد الوحشية والخبيثة المتعلقة بالحرية والمساواة".

الحرية والمساواة.. إلى أي مدى يمكن أن تنتشر هذه الأفكار؟ ما الذي يمكن أن يقف ضدها؟ هل يمكن لأي ملك الاحتفاظ بعرشه؟ هل يمكن للسادة الاحتفاظ بعبيدهم؟ لقد قام الإنجليز بالاجتياح لإسكات هذه الأسئلة، وكانوا على يقين من أنهم سينتصرون بسهولة، وبكل حال هم يملكون أفضل جيش وقوة بحرية في العالم، ويقاتلون مجرد عبيد سابقين؛ لكن في الواقع، كان الهايتيون مقاتلين منضبطين وأذكياء، وكان أحد الأسباب التي أدت إلى نجاحهم في المعركة على وجه التحديد هو ازدهار تجارة الرقيق؛ فقد كان الكثير من الجنود الهايتيين محاربين في بلدانهم الأصلية، وتم تدريبهم على التكتيكات العسكرية والتي استخدموها بشكل جيد ضد الإنجليز، كما أسهمت الأمراض المختلفة كالملاريا والحمى الصفراء في تدمير الإنجليز؛ مما أدى إلى مقتل آلاف الأشخاص؛ لكن في النهاية انتصر



الهايتيون، وعندما اقترب توسان من آخر معقل بريطاني، قال: "نحن نقاتل لتبقى الحرية أغلى من كل ممتلكات الأرض ولا تفنى". لاحقًا سيستخدم أبراهام لنكولن تقريبًا الكلمات نفسها في كتابه جيتيسبورغ بعد حوالي خمسة وستين عامًا.

بحلول أكتوبر 1798 استسلم البريطانيون؛ ولكن لا يعني هذا أن توسان انتصر؛ فكان لا يزال يواجه اثنين من أقوى الأعداء: الأول هو فرنسا، البلد الذي ألهم الهايتيين ومنحهم حريتهم، والآخر هو الخوف. كانت الحكومة في فرنسا التي ألغت الرق في طريقها إلى تدمير نفسها. المفارقة الكبرى حول الثورة الفرنسية هي أنه بالرغم من تمرير الثوريين لقوانين تصب في صالح الفقراء

والاستعباد أكثر من أي وقت مضى؛ إلا إن القادة أنفسهم أصبحوا متحمسين على نحو متزايد لقتل أعدائهم، وهذا الوضع يشبه وضع الكثير من الأنظمة التي – إلى يومنا هذا – يدعي فيها الطاغية أنه يساعد الشعب، بينما هو في الوقت نفسه يسجن خصومه ويسرق البلد. كثيرًا ما يتم تغليف السلوك الوحشي بالأفكار العظيمة.

في عام 1799، وضع نابليون بونابرت – أفضل جنرال في فرنسا – نهايةً لحمام الدم الثوري؛ فاستولى على السلطة وأسس قواعدَه الجديدة، واعترف بسرعة بأهمية السكر في بلده، وقام بعكس القانون الذي أطلق سراح العبيد، ثم بدأ العمل على إنشاء إمبراطورية سكر وعبودية لفرنسا من شأنها أن تنافس إنجلترا، كما عقد اتفاقًا مع إسبانيا التي أعطت فرنسا حرية السيطرة على وسط أمريكا الشمالية، بدءًا من نيو أورلينز وعلى طول المسيسيبي، بعد ذلك عقد السلام مع إنجلترا وأرسل جيشًا لسحق المتمردين في سانت دومينغ، وبمجرد أن استعاد السيطرة على جزيرة السكر؛ أصبح بإمكانه استخدام إقليم لويزيانا لتموين جميع مزارع السكر في منطقة بحر الكاريبي، وجني ثمار الذهب الأبيض.

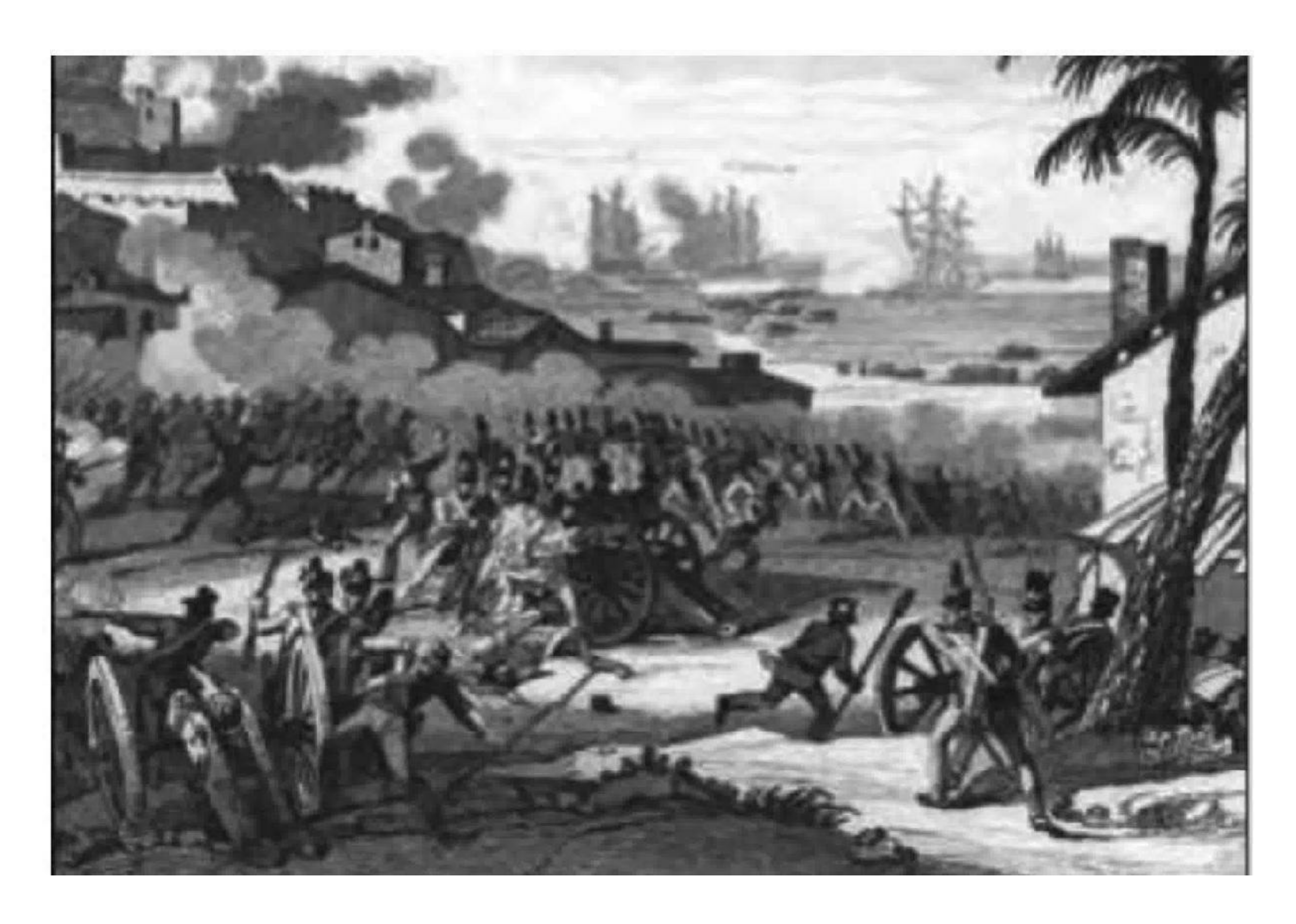
كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد انفصلت عن إنجلترا ولكنها أبقت على العبودية، أما فرنسا فأطلقت سراح العبيد ولكنها استهلكت نفسها في أعمال العنف، أما إنجلترا فقد بدأت بالحديث عن إنهاء الرق؛ ولكن بعد أن رأت الفوضى في فرنسا أرسلت جيشًا لمساعدتهم على الانتصار على الهايتيين، وتبع نابليون خطى الإنجليز، وأرسل جيشه المكون من 35000 رجل بقيادة شقيق زوجته الذي سرعان ما سجل نجاحًا ساحقًا؛ فتم القبض على توسان عام 1802 وتسليمه إلى فرنسا، حيث توفي في السجن عام 1803؛ لكن العبيد السابقين واصلوا القتال وخلال عامين قُتل ما يقارب 50 ألف جندي فرنسي، وفي 1 يناير 1804، ولدت جمهورية هايتي المنتصرة بالكفاح من أجل نيل الحرية، هزم العبيد السابقون جيشَ إنجلترا ثم فرنسا؛ أقوى دولتين في أوروبا.

ولدت هايتي حرّة وانتصرت حقوق الإنسان على حقوق الملكية؛ ولكن الشعب الحر في هايتي كان لا يزال يواجه أخطر منافسه، وهو الأكثر تدميرًا: الخوف.

ظل زعماء الثورة الأمريكية يراقبون عن كثب قتال العبيد من أجل حريتهم في هايتي؛ لكن أدى هذا القتال إلى انقسام المؤسسين، الذين كانت لهم صراعاتهم الخاصة حول كيفية التعامل مع الرق في الولايات المتحدة الجديدة؛ فعندما كان جون آدامز رئيسًا، أرسل المدافع والإمدادات إلى توسان للمساعدة في النضال ضد الفرنسيين؛ بينما كان توماس جيفرسون مرتعبًا بسبب نجاح الثورة الهايتية.

عندما خلّف توماس جيفرسون جون آدمز، لم ير هايتي إلا تهديدًا لأمريكا؛ فتوقع أن ينتقل العبيد السابقون من الجزيرة إلى أمريكا، ويدعون إلى الحرية والتمرد، فقال: "ما لم يتم القيام بشيء ما، وبشكل فوري، سنكون نحن قتلة أطفالنا.. العاصفة الثورية التي تجوب العالم الآن ستجتاحنا"؛ لذلك رفض الاعتراف بـ هايتي، الجمهورية الشقيقة الوحيدة في أمريكا. في الواقع، لم يتم الاعتراف بهايتي أو إقامة علاقات معها حتى عام 1862 عندما أصدر إبراهام لنكولن إعلان التحرر. كان الأمريكيون أمثال جيفرسون فخورين بأنهم قاتلوا من أجل حريتهم؛ ولكن لم يستطيعوا معاملة الهايتيين

كشعب شجاع يستحق الاحترام مثلهم؛ ذلك أنه إذا كان بإمكان الهايتيين أن يطالبوا بحريتهم وأن تعترف بهم أمريكا، فما الذي يضمن أن العبيد داخل الولايات المتحدة لن يفعلوا الشيء نفسه؟ كانت القوى الأوروبية الكبرى غير راغبة بالاعتراف بالأرض التي نال فيها العبيد حريتهم؛ فبقيت هايتي معزولة عن العالم، ومحرومة من الاستفادة من التجارة والاتصال الذي كان يمكن أن يعود عليها بالفائدة لو تعاملت معها بلدان أخرى في الأمريكتين أو أوروبا كشريك؛ ولذلك تعثرت، كما يرجع ذلك جزئيًا إلى الصراعات الداخلية التي لم يكن فيها دور خارجي. على كل حال لم تتعاف هايتي أبدًا من ولادتها العسيرة؛ لذا أخافت البلادُ أصحابَ الرقيق؛ لكنها لم تغير وجهات نظرهم.



اعتقل الفرنسيون توسان عام 1802 وتوفي في فرنسا؛ ولكن العبيد السابقين فيما بعد هزموا الجيش الفرنسي في هايتي. هذه اللوحة تظهر واحدة من الاشتباكات العديدة في تلك الحرب. في عام 1804 أصبحت هايتي الدولة الثانية المستقلة في الأمريكتين. (المتحف التاريخي لجنوب فلوريدا)

بعد عام 1804 أصبح عبيد هايتي أحرارًا؛ لكن كان لا يزال القصب ينمو في بقية أراضي السكر القديمة، وكان العبيد ما زالوا يدفعون أرواحهم لحصدها. مرة أخرى في إنجلترا، وجد كلاركسون وأصدقاؤه فرصتهم؛ ففرنسا لم تعد في خضم الثورة، وأحلام نابليون قد فشلت؛ فلم يعد لدى إنجلترا الآن أي عذر؛ سيجبر المناهضون للعبودية مواطنيهم على مواجهة هذا السؤال: هل إنجلترا دولة مبنية على معتقدات مسيحية أصيلة أم على معاملة الناس كممتلكات؟ في عام 1806، قدمت قوات

مكافحة العبودية مشروعَ قانون جديد أمام البرلمان من شأنه أن يحد من مشاركة البريطانيين في تجارة الرقيق، كانت بعض أقوى الشهادات التي جاءت لصالح هذا القانون من ضباط سابقين بالجيش كانوا في منطقة بحر الكاريبي وشاهدوا شجاعة العبيد السابقين وأهوال الرق، خرجت شهادات العبيد عبر تصريحات



تحتفل هذه العملة بالإنجاز الأول لمناهضي العبودية وهو إنهاء تجارة الرقيق في بريطانيا عام 1807 . لم يتم سكّ العملة في الواقع حتى ثلاثينيات القرن العشرين، عندما كانت تستخدم في سيراليون – المستعمرة الأفريقية المصممة للعبيد المحرَّرين – بينما في إنجلترا حتى الذين ناهضوا العبودية صوروا العبيد جالسين بتواضع على ركبهم مطالبين بالحرية، في هذه العملة المصممة للاستخدام في أفريقيا، يتم عرض الإنجليز والأفارقة على قدم المساواة تقريبًا. (المتحف الوطني البحري)

الرجال الذين ذهبوا لمحاربتهم.

تحدث أحد أعضاء البرلمان عن التعذيب الذي شاهده في الجزر، لم تكن العبودية قوة اقتصادية أو عدوًّا في لعبة السياسة العالمية؛ بل كانت معاناة رجال ونساء. تم عرض واقع الرق لأعضاء البرلمان تمامًا كما فعل كلاركسون للجماهير في محاضراته عندما أظهر الأغلال والسياط، وبينما ناقش البرلمان مشروع القانون الجديد، انطلق كلاركسون وحلفاؤه إلى إلقاء المحاضرات وتغيير العقول في جميع أنحاء إنجلترا، ونجحوا في ذلك. أفادت الصحف أنه حتى في بريستول، وهي مدينة ساحلية بها ميناء مليء بسفن الرقيق، " تم التعبير عن الغضب الشعبي ضد استمرار الاتجار في البشر". وصف ويليام ويلبرفورس – وهو زعيم آخر مناهِض للعبودية – هذا المنحى الجديد في بلده قائلًا بتعجُّب: "إن الله قادر على تغيير قلوب البشر". كما اعترف العديد من أعضاء البرلمان بالتغيير نفسه في "شعور الأمة". في 1807 تم عرض مشروع قانون لحظر الانخراط الإنجليزي في تجارة الرقيق على مجلس العموم، ثم مجلس اللوردات، وفي الظهيرة المحددة في 25 مارس/آذار، وقع الملك جورج الثالث على هذا القرار. وهو تاريخ يجب أن نحتفل جميعًا به ونكرمه حتى يومنا هذا، فبالرغم من أنه لم يتم تحرير أي عبد بناء على هذا القانون؛ إلا إنه مثّل تغييرًا كبيرًا في العالم. جلب الإنجليز عبيدًا من أفريقيا أكثر من أي دولة أخرى، وقد انتهى هذا الجزء من التاريخ القاتم للسكر والرق. في الواقع، أصدر الكونغرس في العام نفسه قانونًا يحظر على الأمريكيين المشاركة في استيراد العبيد. في خضم النقاشات الكبيرة حول ما إذا كان الإنسان – أي إنسان – يمكن أن يكون من

ضمن الممتلكات، كان الكفة تميل لصالح مناهضي العبودية، إلا أنه بقيت لقصص العبودية والسكر والحرية جانب حالك قادم في الولايات المتحدة.

تجارة السكر ودولة الموت

انتشر الصحفيون في ثلاثينيات القرن العشرين في أنحاء أمريكا الجنوبية لتدوين التاريخ، وكان بعض الأمريكيين من أصل أفريقي والذين ولدوا كعبيد ما زالوا على قيد الحياة، ويمكنهم وصف كيف عاشوا قبل ستين عامًا، يمكننا من خلال كلماتهم أن نبدأ أخيرًا في معرفة العبودية من أولئك الذين عاشوها. أشارت إلين بيتس – التي نشأت في مزرعة سكر في لويزيانا – إلى أنها عملت "على مدار الساعة، بالنسبة لها كانت حقول قصب السكر تمتد من أحد أطراف الأرض إلى الآخر". وتتذكر سيسيل جورج أنها "نشأت في أوقات صعبة، أوقات العبودية"، "الكل كان يعمل، الشباب وكبار السن"، إذا كان بإمكان الشخص حمل القصب فلا بد له أن يعمل حتى في أيام الآحاد"... كان الأمر وكأننا كنا الجزء الوثني من الأمة". كانت تعني أنه في دول أخرى كان العبيد يحصلون على إجازة الأحد للعبادة؛ لكن ليس في لويزيانا؛ فهناك، السكر كان هو الإله، وكان العمل هو الدين. عندما هزم الهايتيون الجيوش الفرنسية، فقد نابليون السيطرة على جزر السكر الأكثر إنتاجًا في العالم وكذلك حلمه من أرباح السكر الكبيرة؛ ونتيجة لذلك، لم يستفد نابليون من الأرض الواقعة في أمريكا الشمالية والتي حصل عليها مؤخرًا من إسبانيا.

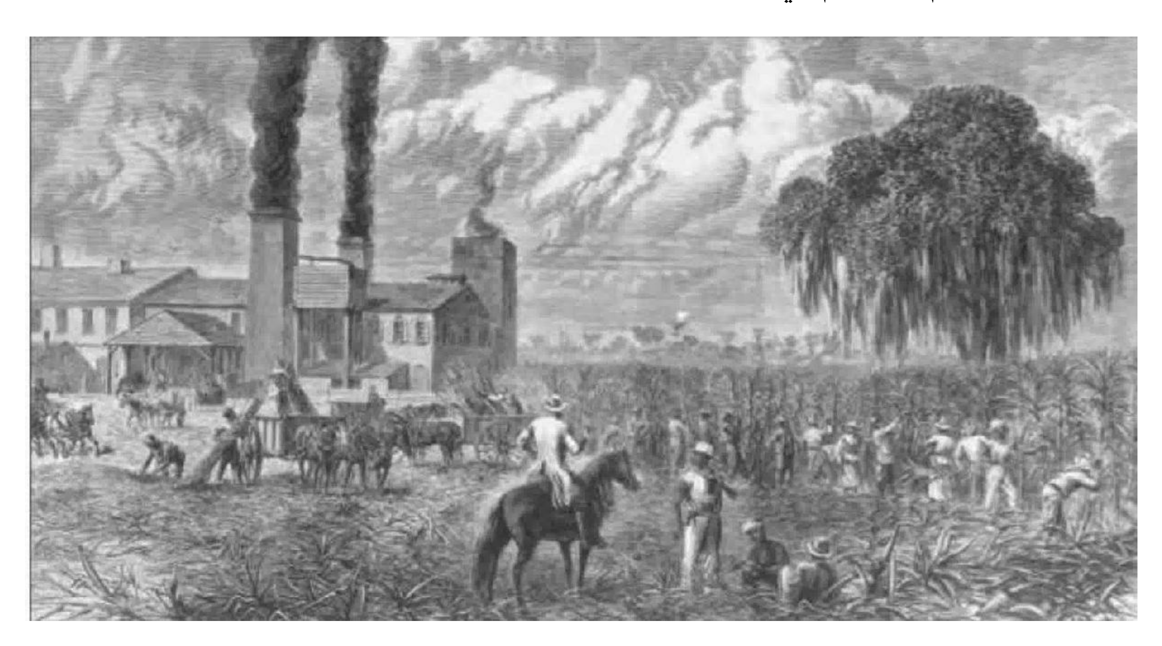
لكن نابليون، على الرغم من ذلك كان بحاجة إلى المال لدفع ثمن حروبه، وهذا هو السبب في بيعه إقليم لويزيانا الواسع إلى جيفرسون مقابل 15 مليون دولار فقط. ما تدّعيه الكتب المدرسية عن عملية شراء لويزيانا يجب أن تسمى في الواقع عملية شراء السكر. حصل الأمريكيون على الجزء الأوسط مما سيصبح أمتهم لأن الهايتيين حققوا حريتهم؛ لكن تكمن المفارقة في أن ذلك منح مالكي الرقيق في هايتي وطنًا جديدًا، فبينما فر مزارعو السكر من الثورة في هايتي، انتقل بعضهم إلى مقاطعة أورينت في كوبا، وبعضهم الآخر إلى أمريكا الشمالية، وإلى لويزيانا، وفي الوقت الذي وصل فيه أصحاب المزارعون الهايتيون والمشرفون إلى نيو أورلينز، كان مناهضو العبودية يضغطون لإنهاء تجارة الرقيق الأفريقية. والمؤسف أن هذه الحركة التي تم إنشاؤها لإنهاء الرق لم تفعل شيئًا لتحسين الظروف في لويزيانا. في الواقع، فإن الولاية التي كان العبيد يسمونها لوسي آنا كانت أسوأ مكان لأفريقي في أمريكا، كانت كالعودة مجددًا إلى منطقة بحر الكاريبي.. أشبه بحكم بالإعدام.

ظل عدد السكان المستعبدين يرتفع في كل ولاية للعبيد الأمريكيين حتى بعد إلغاء تجارة الرقيق؛ لأن ما يكفي من الأطفال المستعبدين ولدوا وعاشوا ونموا ليصبحوا بالغين. كان هناك استثناء واحد فقط من هذه القاعدة وهو لويزيانا؛ حيث ظل عدد المستعبدين المولودين في بلادهم ينخفض. كان السكر قاتلًا.

على عكس منطقة بحر الكاريبي، كان لدى لويزيانا نوبات من البرد؛ وكان هذا يضع ضغطًا إضافيًا على حصاد السكر. لم يقتصر الأمر على عمل العبيد بانسجام تام مع الطاحونة؛ ولكن كان يجب حصد كامل المحاصيل بين منتصف أكتوبر وديسمبر، ازدادت هذه الوتيرة فقط عندما قام

المزارعون بتركيب مطاحن محسّنة تعمل بالبخار، فأصبح البشر بحاجة إلى مواكبة الآلات والعمل بشكل أسرع من الطقس. لدينا لمحة عن هذه الحياة التي لا هوادة فيها في الكلمات التي تركها لنا العبيد السابقين. تولى إفرايم نولتون منصب مدير عقارات لويزيانا عام 1857، وأشرف على عمل الجميع، تم إرسال حتى أصغر الأطفال في مجموعات لإزالة الأعشاب الضارة من القصب، وكان إخوتهم وأخواتهم الأكبر سنًا، الذين كانوا من عشرة إلى خمسة عشر عامًا، ينقلون المياه إلى الذين يعملون في الحقول، حتى أولئك القلة من العبيد الأكبر سنًا الذين لم يعد بإمكانهم العمل في حقول القصب، مهما كان وضعهم أو إصابتهم؛ اضطروا إلى إصلاح الأدوات أو تمريض الجرحى الجدد.

كان مزارعو السكر في لويزيانا انتقائيين للغاية؛ فلم يشتروا إلا شبابًا يتمتعون بصحة جيدة في أواخر سن المراهقة؛ لعلمهم أن عبيدهم من المرجح أن يموتوا في الوقت الذي يصلون فيه إلى الثلاثينيات من أعمارهم. في المتوسط، كان الرجال الذين تم شراؤهم في لويزيانا أطول بقياس بوصة من الأشخاص الذين تم شراؤهم في دول الرقيق الأخرى، لقد شكل هؤلاء



تُظهِر هذه اللوحة العائدة لعام 1875 لمحصول السكر في لويزيانا المصنعَ بالقرب من الحقول؛ لأن السكر جاء إلى لويزيانا في وقت متأخر، وانسجم مع وتيرة المحرك البخاري في العمل الذي لا نهاية له .(مكتبة الكونغرس)

المراهقون سبعة إلى ثمانية من كل عشرة من العبيد الذين تم جلبهم إلى جحيم السكر في أمريكا. أما البنات الأصغر سنًا والتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، فكان عملهن، بالنسبة لبقية حياتهن القصيرة، إنجاب أطفال. أكدت إليزابيث روس هايت أن ‘‘كل ما أراده السادة هو أن تنجب النساء المزيد من الأطفال’’، ليستخدموهم في العمل في الحقل أو بيعهم. أوضح المراقب إس. رابي: ‘‘أنجبت ريتشيل طفلًا جميلًا يوم الأحد الماضي. أعتقد أن محصولنا من الزنوج يعوّض أي نقص يمكن أن يكون في محصول القصب’’، يقصد بهذا القول أن السيد يمكنه بيع أيٍّ من

العبيد الذين بقوا على قيد الحياة، في حال احتاج إلى المزيد من المال الذي كان يمكن أن يجنيه من تجارة السكر.

ولد الجاز في لويزيانا، ربما لأن غالبية السكان الذين كانوا من المراهقين، وكلهم تقريبًا من الذكور، أُلهموا لتطوير موسيقاهم الخاصة بهم كوسيلة للتعبير، والتنافس، والإعلان عن هُويتهم للعالم؟ أعطت البومبا في بورتوريكو، والماكوليلي في البرازيل، وموسيقى الجاز في لويزيانا الناسَ فرصةً لعيش الحياة كبشر، يحملون الأفكار، والأحلام، والمشاعر في الوقت الذي ادعى سادتهم أنهم مجرد تروس في الآلات التي بُنيت لإنتاج السكر. قام عمال السكر بالتعبير بطريقة أخرى أيضًا؛ ففي عام 181، قاد تشارلز ديسلوندس – وهو شخص ملوّن حر من لون سانت دومينغ – بما يمكن تسميته بأكبر ثورة للرقيق في تاريخ الولايات المتحدة؛ حيث جمع العبيد لمهاجمة مزرعة، ثم توجه إلى نيو أورلينز؛ إلا إن تمرده فشل كون القوات من الرقيق والبِيض كانت في استقباله، ولكنها كانت علامة على الصلة القوية بين لويزيانا وهايتي. تذكر البِيض حُكمهم على الجزيرة. تذكر السود معركتهم من أجل الحرية.

تركزت قصة السكر في الولايات المتحدة على ولاية لويزيانا، على الرغم من أن الولايات التي يفترض أنها حرة مثل نيويورك حققت حظوظًا في نقل السكر الذي ينتجه العبيد وبيعه. عندما انقسمت الأمة خلال الحرب الأهلية، لم يعد الشماليون قادرين على الحصول على القصب من تلك المزارع المنتشرة على طول المسيسيبي؛ لذلك كان عليهم أن يذهبوا عبر المحيط إلى الجنة.. هاواي.

سكر في الجنة: "جئت أبحث عن الحلم"

هاواي هي نقطة التقاء رحلتيّ قصب السكر. ابتداء من عام 1100، جلب أول سكان هاواي سيقان القصب معهم في رحلتهم الطويلة عبر المحيط الهادئ. وبحلول عام 1800، عندما بدأ الأوروبيون استكشاف الجُزُر، رأوا السيقان الخضراء السميكة تنمو بدءًا من مستوى سطح البحر وصولًا إلى التلال. كما رأينا، بدأت رحلة هذه النبتة غربًا من غينيا الجديدة إلى الهند، ثم إلى بلاد فارس والشرق الأوسط، فالبحر المتوسط، ثم بوساطة كولومبوس وصلت إلى العالم الجديد. وبحلول القرن التاسع عشر، عندما تحول المزارعون إلى الجزر الغنية بمزارع القصب في هاواي، نقلوا معهم معرفتهم حول كيفية تشغيل مزارع السكر. هذه المرة وجد المزارعون الذين يعرفون كل شيء عن المزارع والمطاحن والتكرير، وجدوا السكر في انتظارهم على جزر جميلة، كما كانت تبدو هيسبانيولا عندما وصلها كولومبوس.

كانت الولايات المتحدة في خضم حرب أهلية، ولم يكن عبيد أفريقيا خيارًا؛ لذلك نظروا إلى الشرق، إلى الصين. في هاواي، جلب أصحاب المزارع لأول مرة الرجال، فقط الرجال، من الصين للعمل في المحصول. في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن العمال الصينيون يتقاضون رواتب جيدة؛ ولكنهم لم يكونوا عبيدًا. مع مرور الوقت زاد عدد العمال الصينيين، وبدأوا يطالبون بزيادة الأجور وتحسين الظروف، ولوقف هذه الفكرة الخطرة، تحول أصحاب المزارع إلى جلب عمال من اليابان، وفي الوقت الذي بدأ فيه اليابانيون بتقديم المطالب نفسها، فازت الولايات المتحدة بالحرب الإسبانية الأمريكية (عام 1898) واستولت على الفلبين، وتم جلب عمال منها إلى حقول

السكر للتنافس مع الصينيين واليابانيين، وكذلك الكوريين والبرتغاليين. تم نشر الإعلانات في إسبانيا لجذب عمال السكر هناك، حتى أن عددًا من الأمريكيين الأفارقة جاءوا أيضًا لهذا العمل.

مرة أخرى ساعدت الموسيقى والأغاني عمالَ السكر على الحفاظ على معنوياتهم عالية والتحدث إلى بعضهم بعضًا بطرق لم يتمكن زعماؤهم من فهمها. وعندما كسب الرجال اليابانيون قدرًا قليلًا من المال، كتبوا لأهاليهم في الوطن، وأرسلوا إليهم الصور – قد تكون لهم، أو قد تظهر شخصًا أصغر سنًا أو أفضل مظهرًا –؛ لعرضها على عروس محتملة، امرأة من شأنها أن





ترسل بدورها صورتها، وهكذا شيئًا فشيئًا انضمت النساء اليابانيات إلى الرجال في مزارع السكر.

كانت المرأة اليابانية تغني في الحقول: هول هول بوشي، هول هول كلمة هاوايية تعني "تجريد الأوراق"، وبوشي "أغنية" باللغة اليابانية. حتى المصطلحات المستخدمة في هذه الأغاني كانت مزيجًا من اللغتين، وهي علامة على الحياة المختلطة في الجزر. وكانت بعض الأغاني مضحكة، وبعضها مثيرًا، وبعضها الآخر يذكرنا بتوماس ثيستلوود والأيام الرهيبة من جحيم السكر:

الزلازل والرعد لا تخيفني

ولكن صوت المراقب يبقيني مستيقظًا

عمال السكر في هاواي لم يستعبدوا – اختاروا المجيء. لكنهم لا يزالون يعيشون حياة صعبة:

هاواي، هاواي

جئتُ أبحث عن الحلم

ولكن دموعي الآن تتدفق في حقول القصب

عندما تم جلب الأفارقة للعمل في إنتاج السكر، كان عليهم أن يشكلوا عائلات جديدة، ويتعلموا لغات جديدة، كان عليهم أن يجدوا طرقًا لمزج حياتهم الجديدة مع ما يتذكرونه من أوطانهم، وقد وجد العمال في أناشيد بوشي هول هول سبيلًا إلى القوة والراحة:

زوجي يقطع القصب

وأنا أحمله من الحقل

معًا.. ندع الأمر يمر

ولأنهم لم يتمكنوا من استخدام العبيد، تحول أصحاب مزارع السكر في هاواي من مجموعة عرقية إلى أخرى، في محاولة للحفاظ على الأجور منخفضة من خلال جعل العمال الجدد يتنافسون مع القدماء؛ ولكن كل هذا التخطيط لخلق الانقسامات أتى بأغرب تأثير؛ فأصبحت هاواي المكان الأكثر تنوعًا عرقيًّا في العالم، وهكذا في عام 1959، عندما أصبحت هاواي دولة، كانت أشبه بالأراضي متعددة الثقافات التي تأسست منها الولايات المتحدة بدلًا من جحيم السكر الذي كان جزءًا كبيرًا من تاريخها.

يذهب السكر في هاواي إلى الشرق والغرب، ويعود بنا أخيرًا إلى القصة التي تعلمها مارك في القدس ومارينا في غيانا. دعونا نعود إلى قصصنا، نسمع عمال السكر ونراهم، ومعرفة الوقت الذي وصلت فيه الاشتباكات بين حرية الإنسان واعتباره من الممتلكات ذروتها.

الفصل الرابع

نعود إلى قصصنا

عمالٌ جُدد، سكرٌ جديد

نظامٌ جديد

الهند البريطانية، القرن التاسع عشر.

قد يبدأ الأمر في سوق.. تحضر هناك لبيع الخضار، أو للحصول على عمل لهذا اليوم، أو ربما لمجرد التمتع بالمشاهدة والتجول، يهمس غريب بأذنك: «تريد أن تحصل على أجر أفضل؟ »، وقد يشتري لك بعض الخبز والعدس ويمنحك وعودًا بحياة جديدة، وكسبٍ جيد يكفي لإرساله إلى الأبوين الفقيرين. قد يكون معه رجل آخر (شريك ربما، ولكنك لا تعرف ذلك) يصوّر لك الثراء الوشيك؛ وهكذا فإنك توافق، تمشي مع الغريب على طول الطرق الحارّة والمتربة، تلتقطون المجندين الآخرين، الذين يسمعون القصة نفسها. إذا شككت بالأمر أو ترددت، سيرد عليك الغريب بلسانه اللزج: لا بأس، ولكني بقيتُ أُطعمك طوال الأيام السابقة، وعليك أن تدفع لي الآن. بالطبع ليس لديك مال؛ لذلك لا تجد خيارًا سوى المضي والقَبول بهذا العمل.

في بعض الأحيان يلمح إلى المكان الذي يأخذك إليه، ‘‘إلى دامرا’’ (ديميرارا). ديميرارا نهر في غيانا؛ لكن الكلمة كانت تستخدم أيضًا للإشارة إلى المنطقة، وحتى إلى المستعمرة نفسها؛ لذلك، بغض النظر عمَّا يقوله الغريب، ليست لديك فكرة حقيقية عن المكان الذي أنت ماض إليه، أو ما يتوقع منك القيام به. في الواقع، كان المهاجرون يقولون فيما بينهم: ‘‘ذهب إلى تابو’’، الذي لم يكن مكانًا محددًا، كان يعني شيئًا مثل ‘‘اختفى’’ أو ‘‘اختفت’’، ويحمل تلميحًا عن الشر أو الخطر.

كانت هذه هي الطريقة الجديدة للعثور على ناس للعمل في حقول السكر، وجرت في مناطق تبعد آلاف من الأميال عن جزر السكر.. في الهند. تم غرس بذور هذا النظام عام 1823 في مستعمرة السكر في غيانا البريطانية. غيانا.. حيث يملك جون غلادستون، والد رئيس الوزراء البريطاني المقبل ويليام غلادستون، أكثر من ألف من العبيد. جون سميث، القس الشاب الذي جاء مؤخرًا إلى المنطقة، كانت شعبيته تزيد أكثر فأكثر لدى العبيد، أعادت عظاته الملهمة قصة موسى الذي قاد اليهود من مصر إلى الحرية. استمع عمال السكر وفهموا: لم يكن سميث يتحدث عن الكتاب المقدس فحسب؛ بل عن الحاضر أيضًا. في ذلك الصيف، وبعد الاستماع إلى إحدى خطب سميث، حمل أكثر من ثلاثة آلاف من العبيد مناجلهم، وثاروا ضد أسيادهم؛ هُرع حاكم المستعمرة نحو المزارع المشتعلة؛ حيث التقى مجموعة من العبيد المسلحين، وسألهم عما يريدون؛ ‘‘حقوقنا ‘‘ هكذا جاء الرد.

شدّد العبيد على أنهم ليسوا ممتلكات، كحال اليهود في مصر القديمة، بل هم عيال الله وأنهم بشر كالآخرين، ومن حقهم أن يتمتعوا بحقوقهم الإنسانية الأساسية. كان الإنجليز قد أوقفوا تجارة الرقيق، ولكن حكام مستعمرات السكر لم يكونوا مستعدين بعد للاستماع إلى العبيد الذين يطالبون بمعاملتهم كبشر كاملين. استدعى الحاكم قواته فأفشلت التمرد بوحشية؛ حيث تمت مطاردة العبيد المتمردين عبر الحقول والغابات القريبة، وإلقاء القبض عليهم، وتم شنق كوامينا، الزعيم المزعوم للتمرد، أمام مدخل أحد مزارع جلادستون، وتمت محاكمة جون سميث وحكم عليه بالإعدام في إنجلترا، ورغم ذلك توفي بسبب مرض السل قبل أن تصل سفينته إلى لندن.

أثارت أخبار وفاة القس سميث ضجة كبيرة في الصحف البريطانية وفي البرلمان. ولأن الرق قد ارتبط في أذهان الناس بالوحشية، فإن موت قس، قس إنكليزي أبيض على وجه الخصوص؛ كان كفيلا بأن يقنع المزيد والمزيد من الناس في إنجلترا بأنه تجارة غير أخلاقية؛ وعلى الرغم من أن الجدل لم يلغِ فورًا تجارة الرق؛ إلا إن النهاية لاحت في الأفق. كان العبيد قادرين دائمًا على الاعتماد على دعم النبلاء الإنجليز، الذين قاوموا أي تغيير قد يقلل من قوتهم؛ ولكن حتى عندما تحدث أتباع مناهضة الاستعباد عن حقوق الأفارقة، كان البرلمان في النهاية ينظر بجدية في إعطاء المزيد من الشعب الإنجليزي الحق في التصويت. بعد عشر سنوات – بالتمام – من التمرد البريطاني الغوياني الرهيب، تم أخيرًا إقرار مشروع قانون تحرير العبيد.

أصبح الاستعباد غير قانوني في إنجلترا الملكية الأرستقراطية. في 1 أغسطس 1838 تم تحرير جميع العبيد. انتصر كلاركسون، ويلبرفورس، وأتباعهم الذين ناهضوا العبودية. قام كويكر ويليام ألين، الذي كافح تجارة العبيد منذ ما يقارب خمسين عامًا، بشرب أول فنجان من الشاي مع ملعقة من السكر، السكر الحُرّ. كانت نهاية الرق خطوة كبيرة في مجال حقوق الإنسان؛ لكن ماذا يعني ذلك بالنسبة لمزارع السكر التي كانت تعتمد على العمالة الرخيصة لمواكبة دورة أربع وعشرين ساعة من الحصاد؟ في عام 1836، كتب جون غلادستون نفسه الذي عرضت ولايته جسدَ قائد العبيد كامينا وهو مقيد بالسلاسل، كتب إلى شركة الشحن "غلادستون" طالبًا توفير مائة عامل (كان الاسم العامي لهم "كولي") من الهند للعمل في مزارعه. أول سفن غلادستون، ويتبي التي تحمل 249، وهيسبيروس التي تحمل 244 راكبًا، أبحرتا إلى ديميرارا في عام 1838، وهكذا بدأ فصلًا جديدًا في قصة السكر.

عبور الماء الأسود

لماذا يخاطر أي هندي ويخرج للعمل في صناعة السكر؟ في ذلك الوقت كانت الهند فقيرة جدًا، ولا سيما في الشمال؛ حيث اجتاحت المجاعاتُ والجفاف الريفَ وأخذ الناس يهجرون أراضيهم، لم يكن ترك المنزل للعثور على عمل فكرةً جديدة؛ ولكن كانت هناك مشكلة خاصة بالعمل بالسكر. يمارس شعب الهند العديد من الديانات المختلفة؛ فكان هناك المسلمون، والبوذيون، والسيخ، والكاثوليك، والزرادشتيون، واليهود؛ ولكن معظم الهنود هم من الهندوس، وبالنسبة للهندوس التقليديين كان ترك الهند والسفر عبر المحيط يطلق عليه: "عبور المياه السوداء"، وكان ممنوعًا؛ حيث يتم عدُّ أي شخص أقدم على هذه الرحلة المشؤومة ملوثًا.

يحمل الهندوس في الهند تقديرًا كبيرًا لمكانهم في مجتمعهم، يولد كل شخص في الطائفة ومعه دوره في المجتمع. تمامًا مثل الأوروبيين في عصر العسل، كان من المتوقع من الهندوسي القيام بعمل أجداده؛ لكن الشخص الذي يعبر المياه السوداء كان يفقد الانتماء لطائفته؛ فيتم تجريده من امتيازاته التي ميّزته وعائلته لأجيال، ولا يتلقّى أي شخص غادر البلد احترامَ أصدقائه وأسرته وزملائه القرويين بعد العودة إليه، ما لم يمر بطقوس خاصة.

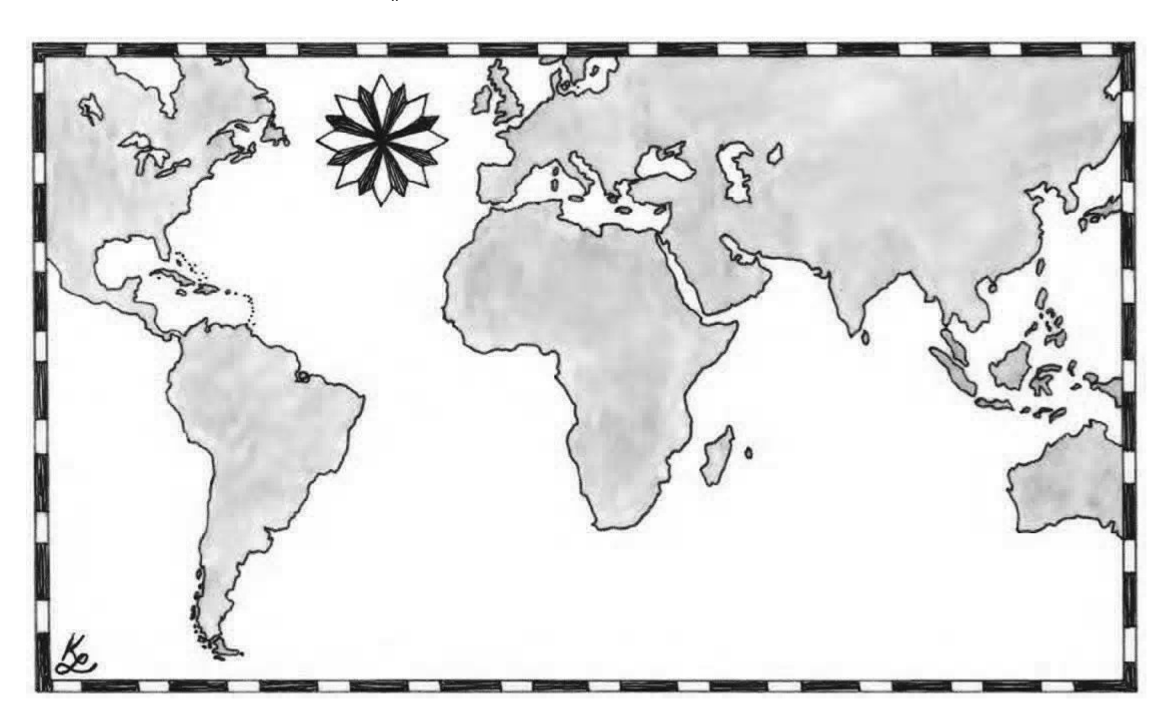
كان الهنود أنفسهم هم (المستأجرون) الذين استأجرتهم شركات الشحن؛ كانوا يعرفون أن القرويين لا يريدون عبور المياه؛ لكنهم كانوا يعرفون أيضًا أين يكون هناك أشخاص يعانون من الجوع واليأس؛ فذهبوا إلى القرى بحثًا عن رجال أقوياء، وقد أوضح باراث الذي كان على وشك المغادرة إلى ترينيداد، كيف حدث ذلك، كانت لغته الإنجليزية صعبة الفهم بطبيعة الحال؛ ولكنها الطريقة التي بدأ بها الهنود التحدث في الجزر – لم يخبرني أنني ذاهب إلى ترينيداد، ولم يخبرني أنني لن أعود أبدًا، ولن أرى والدتي، ووالدي مرة أخرى.

عندما يصل العمال أمثال باراث يقوم ضابط في المنطقة بإزالة المعلومات والاسم والقرية والطائفة، ثم يرسلهم لمئات الأميال إلى مستودع الإبحار في كلكتا، كان الانتظار في المستودع – وهو عبارة عن مجموعة من المباني المحاطة بجدار عال بالقرب من المرفأ – تجربةً غريبة؛ فالعمال الذين

لم يغادروا قُراهم يومًا عاشوا فجأة بين أناس يتحدثون لغات مختلفة؛ فبدلًا من العيش مع أشخاص يعرف أسلافه أسلافهم، تم رميهم مع أشخاص لا يعرفون عنهم شيئًا. تم إعطاؤهم جميع التطعيمات، وأوعية الأكل المعدنية، والملابس الدافئة، وتلقت النساء السترات، والتنانير، والسراويل الصوفية، ومُنح الرجال السترات الصوفية، والقبعات، والأحذية، وتم الاتفاق على عقد عمل مدته خمس سنوات، بأجرٍ يومي، وقد أعطوا وعدًا بالعودة إلى الهند.

يُعطى الكُولي في اليوم الذي كان يغادر فيه هويةً وهي عبارة عن قطعة من القصدير، يتم تعليقها على الرقبة أو حول الذراع. لفقد الأفارقة المستعبدون الذين نُقلوا إلى مزارع السكر أسماءهم؛ لأنهم كانوا ملكية خالصة. أما الهنود فتم الكذب عليهم وخداعهم، إذ كانوا عمالة رخيصة لا أكثر تم استقدامها للحفاظ على استمرار عمل المزارع؛ لكنهم بقوا أفرادًا يحملون هويات؛ حيث كان يتم تسجيل كل اسم بعناية في دفاتر الحسابات.


كانت الرحلة طويلة، وتستمر أحيانًا لمدة 27 أسبوعًا، فهي أطول بكثير



من الرحلة التي كانت تجلب الأفارقة المستعبدين حديثًا إلى العالم الجديد. يعيش الجميع تحت سطح السفينة، الرجال على جانب، والنساء والأطفال على الجانب الآخر، يتم السماح لهم بالوجود على سطح السفينة لاستنشاق الهواء والرقص والغناء؛ ولكن غالبًا ما كان المرض يتفشّى بينهم مثل الحمى الرهيبة. يضيع بعضهم بعيدًا بسبب الحزن. بدأ شيء آخر يتشكل على متن السفن وهو شعور جديد بأنهم أسرة كبيرة، حتى وهم بعيدون عن المنزل؛ حيث أطلق المهاجرون على أنفسهم "جاجي – باي" أي أخوة السفينة، تتناول هذه الأغنية الآمال التي جلبها الهنود معهم على متن تلك السفن:

أخوة السفينة

استمع عزيزي، استمع

تعال معي

سوف تحصل على وظيفة جيدة

تجعلك غنيًّا،

سردار [رئيسًا]،

صاحب [سيدًا]

تعال، وأنا آخذك إلى بلد اسمه سيتيرام

هذا البلد يقع بجانب كلكتا

هناك مناجم من الذهب

هناك، سوف تحصل على الغذاء في أوان من ذهب

معًا، أبحر أخوة السفينة إلى المجهول.

الحرية أم العبودية؟

العبودية أم الحرية؟ ما بينهما

لم يكن المهاجرون عبيدًا تمامًا؛ ولكنهم لم يكونوا أحرارًا أيضًا. عندما وصل العمال الجدد المنهَكون إلى منطقة بحر الكاريبي، لم يتغير الكثير منذ أيام العبودية؛ فتم في مستودع المهاجرين تحديد المزارع التي سيعملون فيها، ثم نقلهم إلى ثكنات الرقيق القديمة والأكواخ المنخفضة؛ حيث تقاسم العديد من الرجال مِساحة صغيرة، ناموا على أَسِرَّة خشبية، وعانوا من التصريف السيئ والأرضيات الرطبة. كان العمل في صناعة السكر وحشيًّا أكثر من أي وقت مضى، كان العمال يستيقظون في وقت مبكر، وفي الأشهر القليلة الأولى كانوا يعملون في المهام المتعبة من تعشيب أو حصاد القصب، ثم بعد فترة تضاف لهم مهام أخرى، وإذا كانوا محظوظين، فربما يحصلون على عمل في المصنع. كانت عقود الهنود تنص على العمل لمدة سبع ساعات لقاء أربعة وعشرين سنتًا يوميًّا؛ إلا إنه خلال الشهور القليلة الأولى، تم خصم ثمانية سنتات في الأسبوع مقابل الحصول على حصص غذائية، وبغض النظر عن الكلمات التي كُتبت في العقد، لم يعمل عمال السكر مجرد سبع ساعات، فكانوا في كثير من الأحيان يعملون طالما كان هناك ضوء في حرارة عالية. وعلى الرغم من أنهم قد لا يكونون مكبلين أو يتم جلدهم مثل العبيد؛ إلا إن المشرفين القساة كانوا يسيطرون تمامًا على حيواتهم. لا يتمكن العمال من مغادرة المزارع ما لم يكن لديهم تصريح، وإذا قرروا أن يستكشفوا من تلقاء أنفسهم دون إذن؛ يتم إلقاؤهم في السجن أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة أو فقدان أجورهم التي

اكتسبوها بشق الأنفس، ويمكن أن تؤدي تهمة كالـ "التسكع" في الحقول إلى فقدان أجور أسبوع كامل، والأسوأ من ذلك أنهم إذا تجرأوا على التمرد أو الاحتجاج؛ قد يتم نقل عقدهم إلى شركة أخرى، فضلًا عن شكاوى الجَلد أو الموت الغامض. كانت الحياة كما أشار المؤرخ هيو تينكر، أشبه بحياة سجين في إفراج مشروط. فجروح الرق في مستعمرات السكر لم تلتئم.

ترك الأفارقة الذين عملوا في مجال السكر المزارع سريعًا وحاولوا امتهان الزراعة أو الانتقال إلى المدن المجاورة، وكما قال أحد المزارعين، ليس من المنطقي الاعتقاد بأن "الزنجي سيصبح عاملًا مستمتعًا ومبهجًا على الأرض التي سقاها بدموعه في العبودية"؛ ولكن ماذا يمكن للعبيد السابقين أن يفعلوا؟ كل هندي قَبِل الأجور المتدنية المنصوص عليها في العقد خفّض السعر الذي يمكن لأفريقي أن يتقاضاه عن عمله، كانت المنافسة شديدة بين الهنود، والعبيد السابقين الذين استاؤوا من هؤلاء القادمين الجدد الذين غمروا المستعمرات بأجورهم القليلة. كان هذا الأمر مناسبًا لأصحاب المزارع الذين كانوا يملكون المهارة في إدارة لعبة الانقسام والحكم؛ حيث قسَّموا عمالهم إلى نمطين مختلفين ولكنهما متساويان؛ فوُصف العبيدُ السابقون بالكسالى، في حين وُصفَ الهنودُ بالخنوعين.

تم تجاهل حقيقة أن العبيد السابقين أرادوا أن يعملوا في أراضيهم، وليس للسادة السابقين. أشاد المشرفون بهدوء الهنود ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يعاملونهم بازدراء. يصف أحدُ المشرفين الهنديَّ: "يعاني من الخنوع والتذلل"، وبالرغم من كل تلك المصاعب والتحيز؛ قرر معظم الهنود البقاءَ في المستعمرات حتى بعد انتهاء عقودهم.

بحلول نهاية القرن التاسع عشر، لم ترجع سوى ربع المستودعات إلى الهند بعد أن انقضت خمس سنوات. كان يحدث ذلك أحيانًا لأنهم لا يزالون فقراء جدًا، بينما قال آخرون إن العودة ليست سوى تعرض لازدراء أهالي قراهم لمخالفتهم للطائفة، أو أن يكون فريسة للأقارب الذين يسرقون أموالهم، اختار معظم الذين بقوا في العالم الجديد أن يفعل ذلك؛ لأنه حصل على حياة جديدة. في أواخر القرن التاسع عشر، بدأت السلطات في تقديم عرض جديد للعمال الهنود: إذا بقوا في منطقة بحر الكاريبي، يمكنهم الحصول على قطعة أرض صغيرة خاصة بهم. بعد أن يكملوا مدة عملهم، ويمكنهم البَدء بزراعة أراضيهم.

ازدهرت عائلة مارينا خلال هذا الوقت؛ حيث كان جدها الكبير بمثابة رئيس واحدة من أكبر المزارع في غيانا البريطانية، كانت الأرضُ أكثرَ جفافًا من أي مكان آخر؛ مما جعل الناسَ أقلَّ عرضة للملاريا، وكانت تقام على تلك الحقول الخضراء غير المستخدمة أفضلُ مباريات الكريكت. كما نشأت مدينة صاخبة، تسمى بورت مورانت، وأصبح فيها مدارس، وحتى مستشفى. افتتحت جدتها محل بقالة، وتمكنا من توفير بعض المال وتزويج إحدى بناتهما من أول محام هندي في المستعمرة. ومُنحت جدتُها نفسها منزلًا كبيرًا بمثابة مهر، علمت مارينا في وقت لاحق أن البيت حُوِّل إلى محل لتصليح السيارات.

وبحلول مطلع القرن العشرين، كانت المستعمرات تتغير، وكان السكر لا يزال يهيمن على الاقتصاد المحلي، ولكن الآن هناك المزيد والمزيد من العمال "الأحرار"، أولئك الذين انتقلوا من

المزارع وعاشوا في منازلهم، وقسّموا وقتهم بين العمل في صناعة السكر والأعمال التجارية الخاصة بهم. كان هناك باعة هنود، وتجار، ومزارعو أرز. كان الأفارقة أيضًا قد هاجروا إلى المدن؛ حيث أصبحوا كتّابًا، ومعلمين، أو خدمًا للأسر الغنية. وهكذا نشأ مجتمع جديد، تنغرس جذوره في التاريخ المظلم للعبودية؛ ولكنه كان يتحرك أيضًا إلى المستقبل. عدَّ أصحابُ المزارع أنفسَهم سادةً لهذه الأراضي المتغيرة، وكانوا يستخدمون المحاكم كوسيلة للحفاظ على السيطرة، وليس لإقامة العدل. ورغم ذلك، كان هناك اختلاف واضح عن أيام العبودية؛ فالآن هناك قوانين مكتوبة، وليس مناقشات حول رفض العنصرية؛ كانت هناك عقود وقعها الطرفان، ولا يسود فقط قانون البنادق والتعذيب. يمكننا سماع المزيد عن إذا كان التحول في صوت هندي مميزًا وغامضًا.

الإصلاح

في عام 1896، بدأ عامل مؤهل في غيانا البريطانية والذي أطلق على نفسه اسم ''بيشو'' نشر سلسلة من الرسائل إلى الصحيفة المحلية، مع إعادة صياغة الشروط المتعلقة بمزارع السكر، أو ''الممتلكات''، كما كانت تسمى. ولد بيشو في كلكتا، وضعه يُتمُه في الطبقة الأدنى من المجتمع؛ لكن تبناه القسُ الذي علمه اللغة الإنجليزية، بعد ذلك كان يعمل لبريطانيين في كالكوتا قبل التوقيع على عقد عمل والسفر عبر المحيط. استفاد بيشو من اتقانه للغة الإنجليزية من خلال الكتابة إلى صحف النخبة في غيانا البريطانية. وقام بالتطرق لإحدى الحيل التي استخدمها أصحاب المزارع لإبرام العقود.

كان من المفترض أن يعمل الهنود سبعَ ساعات كل يوم، ويدفعَ لهم المزارعون رسمًا محددًا عن عمل كل يوم؛ لكن المزارعين فضلوا بدلًا من ذلك أن يدفعوا لهم حسب ''المهمة''، وأصروا على أنهم لن يدفعوا لعامل إلا عندما يُنهي مهمة محددة. بطبيعة الحال فإن صاحب العمل كان يختار مهامًا تستغرق أكثر من سبع ساعات؛ لهذا كان يوم العمال يمتد من الفجر إلى غروب الشمس. كتب بيشو أن هذا أمرًا غيرُ قانوني وغير عادل: ''هناك الكثير من الرجال الذين يعملون طوال الوقت، ومع ذلك لا يحصلون حتى على المبلغ المحدد في عقودهم''. كتب العديد من أصحاب المزارع إلى الصحيفة ردودًا على تصريحات بيشو، غاضبين من التلميح أنهم يغشون العمالَ الهنود. كانت الرسائل غاضبة وتستنكر كلام الهندي الذي تجرأ على التحدث والتساؤل عن أخلاقيات الإنجليز.

عندما عقدت لجنة للتحقيق في الأمر عام 1897، بيشو، الهندي الذي يكرهه أصحاب المزارع، وقف أمام القضاة لتبادل الأدلة. كان هذا أمرًا صادمًا؛ حتى أن بعضهم تساءل عما إذا كان بيشو، الذي كتب بهذه اللغة الإنجليزية المصقولة، حقًا هندي؛ لكن كان هناك أكثر من مجرد الغضب والرغبة في إسكات الهندي الصريح؛ فكان وراء هذا التحقيق في القوانين والحقوق وقواعد العمل حقيقةٌ أعمقُ من أن يستشعرها أصحابُ المزارع، حقيقةُ أن عصر السكر كان يوشك على الانتهاء.

من ناحية، أصبح العمل في المزارع مقيّد الآن بشبكة من القوانين والقواعد التي يمكن أن يستخدمها حتى متعهد هندي مثل بيشو لتحدي أصحابها، فالعمال أفراد وليسوا ممتلكات. ومن ناحية أخرى، انخفضت أسعار السكر العالمية. ولم يعد لدى المالكين النفوذ الاقتصادي الذي يمثل دعامة أساسية للاقتصاد، وعليه، كانت المزارع الصغيرة تفلس، وكانت الأساليب القديمة ببساطة لا تجدي.

لماذا انخفضت أسعار السكر؟ بسبب المنافسة من جزء آخر من العالم، وهنا تحديدًا نصل لقصص عائلة مارينا مارك.

السكر والعِلم

هل تذكُر حلم نابليون بإنشاء إمبراطورية سكر فرنسية، وكيف دمر الهايتيون المنتصرون ذلك الحلم؟ فشلت خطة الإمبراطور الفرنسي الكبرى؛ لكن ذلك لم يوقفه. إذا لم يتمكن من زراعة السكر ومعالجته في منطقة بحر الكاريبي؛ سيجد مكانًا آخر؛ ولكن كان ذلك صعبًا لأن البحرية البريطانية كانت الأفضلَ في العالم؛ فحتى لو وجد نابليون مكانًا لزراعة القصب؛ فلن يمكنه أن يحصل على السفن الإنجليزية. كان نابليون على ما يبدو في وضع مستحيل؛ ولكنه رغم ذلك وجد وسيلة للخروج من فخ السكر. في الواقع كان الحل موجودًا بالفعل، كان فقط بحاجة إلى سماع ذلك.

في عام 1747، قام العالم الألماني أندرايس مارغراف بقطع بعض الجزر الأبيض وتجفيفه، ثم هرسها إلى مسحوق. كما فعل الشيء نفسه مع الشمندر، ثم استخرج بعناية العناصر الكيميائية التي أنتجت مساحيق حلوة ثبت أنها كانت مطابقة للسكر الذي يتم الحصول عليه من القصب، ولا تحتاج التربة إلى مناخ استوائي، فهي تنمو بسعادة تحت الأرض حتى في شمال أوروبا. ولأول مرة في التاريخ، كان المذاق الأصلي للمناطق المدارية مطابقًا تمامًا للنباتات التي تم زراعتها في منطقة أكثر برودة، كان الأمر كما لو أن العلماء اكتشفوا أنه يمكن بوساطة البطاطس إنتاج مادة مثل الشوكولاتة، كان سكر الشمندر انتصارَ العقل عبر العلم، على عطايا الطبيعة.

عندما كان نابليون يفكر بكيفية الحصول على السكر دون الحاجة لمحاربة أسطول بريطانيا، كان اثنان من مصانع الشمندر والسكر قد بدأت بالفعل تعمل في أنحاء أوروبا. كان نابليون سعيدًا، وأمر الفرنسيين بزراعة الشمندر، وبحلول عام 1814، كان هناك أكثر من ثلاثمائة مصنع في فرنسا وحدها، مصانع تحوِّل الشمندر إلى سكر. في عام 1806 كان قد أتى بخطة وهي السماح للبريطانيين بحُكم البحار. كان نابليون يشدِّد على أن لا بلد في أوروبا سوف يشتري منهم، وأن السلع من جميع أنحاء العالم سوف تتكدس على الأرصفة الإنجليزية، بينما ينفق الناس في أوروبا أموالهم على المنتجات التي يبيعونها لبعضهم بعضًا. للأسف فشلت توقعات نابليون، وتجاهل الكثير من الأوروبيين قواعده وقاموا بتهريب السلع الإنجليزية؛ إلا إن سكر الشمندر كان له تأثير مهمٌ في جزء آخر من أوروبا وهو أسرة مارك الأوكرانية.

الأقنان والحلاوة

في القرن التاسع عشر، سيطرت كنوز روسيا على أكبر إمبراطورية في العالم، ومع ذلك بقيت أرضها على حالها، فبينما كان الإنجليز يقومون ببناء المصانع وشرب الشاي والتنظيم ضد تجارة الرقيق، فإن الغالبية العظمى من الروس كانوا أقنانًا (القن هو الفلاح الملزم بالعمل في زمن الإقطاع في حقول ملاك الأراضي). كان الأقنان في وضع مشابه جدًّا للعبيد، ولم يتمكنوا من اختيار مكان عيشهم، أو عملهم، وكان لمالك الأرض حرية معاقبتهم وإساءة معاملتهم كلما رأى أن ذلك كان

ضروريًّا. انتهت القِنانة في روسيا عام 1861، أي قبل عامين من إعلان إبراهام لنكولن. كانت المزارع الروسية تعمل باستخدام أساليب بسيطة جدًا وقديمة للزراعة. كالإنجليز في زمن هنري الثالث، كان الروس كلهم عدا الأثرياء منهم لا يزالون يعيشون في عصر العسل، كان السكر ترفًا يمكن التلذذ به فقط عندما يأتي الضيوف. في الواقع، في وقت متأخر من عام 1894، عندما كان الشخص الإنجليزي يستهلك ما يقارب التسعين رطلًا من السكر سنويًّا، كان الروسي يستهلك ثمانية أرطال فقط.

ورغم ذلك، وفي جزء من روسيا، كان النبلاء الذين امتلكوا الأراضي مهتمين بتجربة أدوات ومعدات وأفكار جديدة حول كيفية تحسين التربة، وكانت هذه المنطقة في شمال أوكرانيا مجرد نقطة عبور إلى المناطق الروسية من فورونيه وهرست. عندما وصلت أخبار صناعة السكر إلى ملاك الأراضي في ذلك الجزء الأكثر تقدمًا في روسيا، كانوا يعرفون ما يجب القيام به وهو زراعة الشمندر. أوصل سكرُ القصب الملايين من الأفارقة إلى العبودية، ثم ساعد على تعزيز الحركة لإلغاء تجارة الرقيق. وفي كوبا بدأ أسياد جدد مهتمون باستخدام التكنولوجيا الحديثة بزراعة السكر على نطاق واسع في القرن التاسع عشر. وقاد بعض هؤلاء الملاك الطريق إلى تحرير الرقيق الكوبيين. أصبح سكر الشمندر مثالًا على الزراعة الحديثة التي ساعدت في إقناع النبلاء الروس بأن الوقت قد حان لتحرير الملايين من العبيد. هنا بالضبط تبدأ قصة عائلة مارك، مع جد نينا، القن الذي اشترى حريته مقابل اكتشاف طريقة تلوين سكر الشمندر.

في حوالي عام 1890، كان سعر قصب السكر آخذًا في الانخفاض، وملاك حقول السكر في غيانا البريطانية على حافة الإفلاس، وكان إنتاج سكر القصب في كوبا مزدهرًا؛ مما أدى إلى انخفاض الأسعار؛ وتفوق سكر الشمندر الملون من خلال عمليات جديدة على قصب السكر الآتي من منطقة بحر الكاريبي. كان جدُّ نينا الروسي في فولغا وجدُّ مارينا الهندي في غيانا يربط بينهما السكر، لم يكن أحد آنذاك يتصور ذلك؛ ولكن اختراع سكر البنجر لم يكن مجرد تحد للقصب؛ بل كان تلميحًا – مثل المفاجأة التي تنفجر بعد انقضاء حوالي ثلثي فيلم – أن نهاية عصر السكر كانت تلوح في الأفق. أظهر سكر البنجر أنه من أجل خلق حلاوة مثالية لم تكن هناك حاجة للعبيد، أو للمزارع، في الواقع لم تكن هناك حاجة حتى للقصب، لقد تنبَّأ سكرُ الشمندر بما لدينا اليوم – عصر العلوم – أن المذاق الحلو هو نتاج الكيمياء، وليس السياط.

في عام 1854 كان 11% فقط من إنتاج السكر العالمي يأتي من الشمندر، وبحلول عام 1899 ارتفعت النسبة إلى نحو 65%، وكان سكر الشمندر مجرد التحدي الأول للقصب، وبحلول عام 1 اكتشف الكيميائيون السكّرين، وهي مادة مختبرية تنتج حلاوة تفوق حلاوة السكر الطبيعي بعدة مئات من المرات.

قد تأتي المحليات المستخدمة اليوم في الأطعمة التي نتناولها من الذرة – شراب الذرة عالية الفركتوز – ومن الفاكهة (الفركتوز)، أو مباشرة من المختبر – على سبيل المثال الأسبارتام عام 1965، أو سبليندا عام 1976 – كانت البرازيل الأرضَ التي تستورد الأفارقة أكثر من أي دولة أخرى للعمل في مزارع السكر، فما زالت تربتها مثالية للسكر؛ حيث يُزرَع القصب في البرازيل إلى اليوم؛

ولكن ليس دائمًا لإنتاج السكر؛ بل غالبًا ما يستخدم للحصول على الإيثانول (الكحول).

نتلهف جميعًا للمذاق الحلو، وأصبح لدينا الآن وأكثر من أي وقت مضى الكثير من الطرق لتلبية تلك الحاجة. لا تزال هناك مزارع سكر ذات عمل قاسٍ في بعض الأماكن، مثل جمهورية الدومينيكان – الجزيرة المجاورة لهاييتي –؛ فلا يختلف عمل السكر فيها الآن كثيرًا عما كانت عليه بالنسبة لأسلاف مارينا الهنود في غيانا البريطانية: عمل شاق، وأجور ضئيلة، وأشخاص يتعرضون لسوء المعاملة؛ لكن بالنسبة لمعظمنا، فالكيميائيون (وليس المشرفون) لديهم المزيد ليقولوه عن كيفية تلبية هذه الحاجة. عندما يُذكر السكر في الصحف، يتكلم النقاد عن كمية الطعام الذي نأكله، وليس الذين عملوا في صناعته. يحذِّر الأطباء من أن الشباب يكتسبون وزنًا كبيرًا من تناول الوجبات الخفيفة السكرية؛ ويقلق أولياء الأمور على صحة الأطفال الذين يستهلكون الكثير من المشروبات الغازية. لا أحد يفكر من أين تأتي هذه الحلاوة. لقد غيَّر عصرُ السكر نظامنا الغذائي؛ ولكن انتهت تلك الحقبة، وبتنا نعرف من أين جاءت النهاية ومتى؛ جاءت من جنوب أفريقيا؛ حيث كان محامٍ هنديّ يصنع لنفسه اسمًا.

عبقريّ السكر

كان غلي شراب القصب في قدر بعد آخر ليس خطرًا فحسب؛ بل كان غير فعال بشكل كبير أيضا. والرجل الذي اكتشف طريقة آمنة وموثوق بها لإنجاز الشيء نفسه مع جهد أقل بكثير هو نفسه نتاج مجتمع الرقيق. ولد نوربيرت ريليو في نيو أورلينز في عام 1806. كان والده مزارعًا أبيضَ غنيًّا ومهندسًا يدرك أن الصبي الذي أنجبه من امرأة سمراء حرة كان ذكيًا على نحو غير عادي؛ لذلك أرسله إلى فرنسا لتعليمه، هناك، تعلم من النهج العقلاني والعلمي أن السكر المُستخرج من الشمندر هو نفسه الذي يأتي من القصب، وعندما عاد إلى موطنه لويزيانا، طبّق ما تعلّمه في الهندسة لتكرير السكر.

اكتشف ريليو أنه إذا تم تسخين شراب السكر في سلسلة من القدور الخاصة المغلقة بإحكام، بدلًا من تلك المفتوحة، فإن العملية برمتها سوف تتغير؛ حيث يمكن لشخص واحد، بدلًا من فريق، الإشراف على العملية، وسوف تكون هناك حاجة إلى حرارة أقل بكثير؛ حيث يمكن نقل الحرارة من وعاء إلى آخر. أظهر ريليو أول اختراع له في أربعينيات القرن التاسع عشر، وسرعان ما علم أصحاب المزارع قيمته؛ ورغم أنه المخترع الشهير الذي أعطاه والده الحرية القانونية؛ إلا إنه لم يضمن سلامة رجل أسود في لويزيانا؛ لذلك عاد إلى فرنسا، وعلى الرغم من أنه لم يكن معرّضًا لخطر الاستعباد في فرنسا؛ إلا إنه عانى من سلسلة من الصراعات مع الآخرين الذين ادعوا أنهم اخترعوا عمليته؛ وبسبب الإحباط، حوَّل ذكاءه الحاد إلى أمور أخرى، مثل دراسة الهيروغليفية المصرية القديمة. كان ريليو الذي توفي في باريس عام 1894 مثالًا رائعًا للعالم المتغير للسُّكر في القرن التاسع عشر. كان قد نشأ وسط العبودية لكنه بنى سمعته من خلال العِلم. كان هو نفسه حرًّا ولكن كان عليه أن يكافح ضد العنصرية طوال حياته.

المحامي

ولد مهنداس ك. غاندي (المعروف لاحقًا باسم المهاتما أو العظيم) في الهند لأسرة هندوسية تقليدية، عندما مُنح الفرصة لدراسة القانون في إنجلترا، واجه المشكلة نفسها التي يواجهها العاملون في مجال السكر، وهي فقدان انتماءه للطائفة إذا عبر المياه السوداء، وقد رتبت أسرته مراسم خاصة

سمحت له بالقيام بالرحلة دون التخلي عن مكانه في المجتمع. وهكذا، في عام 1894، قام غاندي، المتعلم حديثًا في إنجلترا، برحلة ثانية. وبدأ في ممارسة القانون في ناتال، وهي منطقة تقع الآن في جنوب أفريقيا. انتقل إلى هناك لأن العديد من الهنود كانوا يعملون في إنتاج السكر هناك.

في أحد الأيام، يقول غاندي: ‘‘وقف أمامي رجل في ملابس رثة، قبعته في يده، أسنانه الأمامية مكسورة وفمه ينزف، يرتجف ويبكي’’. كان العامل الذي كان اسمه بالاسومدرام قد تعرض للضرب المبرح على يد صاحب العمل. عرف غاندي أن بالاسومدرام محاصر؛ وبغض النظر عن مدى سوء المعاملة التي تلقّاها من رئيسه، إذا غادر المزرعة، فإنه يمكن أن يُدان ويُسجن. رأى غاندي هنا الوضع الواقعي للعامل: ‘‘تقريبًا بسوء العبودية. كما العبد، لم يكن العامل سوى مُلكًا خاصًا لسيده’’. كما هو الحال في غيانا البريطانية وترينيداد وموريشيوس، تم جلب الهنود لأول مرة إلى ناتال لقطع القصب. ومع مرور الوقت، بقى بعضهم ليصبحوا مزارعين أو كتبة أو أصحاب متجر، وبدأوا في بناء مجتمعهم الجديد. في حين أن المستوطنين البيض في ناتال كانوا سعداء لتوفّر العمالة الهندية الرخيصة؛ إلا إنهم كانوا صارمين جدًا في رفض السماح للهنود بالعيش هناك بشكل مساوٍ لهم؛ لذلك فعلوا كل ما في وسعهم لتثبيط الهنود بضربهم، أو اعتقالهم، أو إبقائهم في مناطق بعيدة عن أسرهم. لم يكن هناك شك في ذهن غاندي: ليس هذا كله سوى شكل من أشكال الرق.

حتى عندما بدأ غاندي بالعمل في قضية بالاسومدرام، أصدر جنوب أفريقيا قانونًا جديدًا من شأنه أن يجعل الحياة أصعب بالنسبة للهنود، إذا اختار العامل البقاء بعد انتهاء عقده، تُفرض عليه ضريبة سنوية، كان ذلك عبئًا ثقيلًا على الهنود الذين بالكاد تكفيهم أجورهم، كانت الرسالة واضحة: لقد تم جلبك إلى ناتال فقط كعامل مؤقت، ليس لديك الحق في البقاء.

اليوم في الولايات المتحدة نسمح للمكسيكيين والناس من أمريكا الوسطى بحلب الأبقار والعمل في مزارع الطماطم والفراولة والعنب وغيرها



هذه الصورة هي للشمندر السكري الذي حُصدَ في ولاية كولورادو وعلى وشك القطع، التُقِطت عام 1939 . وخلال الحرب العالمية الثانية، التي دخلتها أمريكا بعد عامين، سُمح للأمريكيين بحصص غذائية محدودة فقط من السكر. (مكتبة الكونغرس)



لم يكن حصاد الشمندر قات مثل القصب؛ ولكن كان من الصعب العمل مقابل أجر قليل. تُظهر هذه الصورة التي قام بتصويرها لويس هاين عام 1915 أطفا تتراوح أعمارهم بين عشرة

وثمانية عشر عامًا يعملون في حقول الشمندر في ولاية كولورادو. (مكتبة الكونغرس)

من المحاصيل؛ ولكن الكونغرس أوقف قانون السماح لهم بأن يصبحوا مقيمين أو مواطنين. تمامًا مثل البيض في ناتال، نريد العمالة الرخيصة ولكننا نتردد في تقديم المأوى للعمال وعوائلهم في بلدنا.

فهم المجتمع الهندي في ناتال الرسالة التي يرسلها البيض: اعمل هنا؛ لكن لا تبقَ. لكن الهنود ليسوا ممتلكات، ولذلك أعربوا عن رغبتهم في أن يُعدوا أفرادًا ومواطنين كاملين ومتساوين بحيث لا يمكن الطلب منهم المغادرة بسهولة، أو معاملتهم كأفراد من الدرجة الثانية في المجتمع. سافر غاندي مرة أخرى إلى الهند، حيث تحدث إلى موظفي الحكومة الإنجليزية الذين كانوا مسؤولين عن الهنود في ناتال. وفي زمن التلغراف، انتقلت أخبار كلماته بسرعة إلى جنوب أفريقيا؛ مما أثار غضب سكانها البيض. وبحلول الوقت الذي عاد فيه غاندي بالسفينة في فترة عيد الميلاد، كانت تنتظره حشود غاضبة على الأرصفة. تحلّقت حوله، رمته بالحجارة والبيض، حتى تصدّت له السيدة ألكسندر، زوجة قاضي الشرطة المحلية، قبالة المهاجمين بمظلتها، تم نقل غاندي إلى مركز الشرطة؛ حيث تم نقله من باب جانبي متنكر في زي الشرطة. إلى هذا الوقت، كان غاندي محاميًا، ومناصرًا متناغمًا مع البِيض لتقديم معاملة أفضل للهنود. كانت رسالته على وشك التغيير.

ساتياغراها

لقد ترك السكر دربًا دمويًّا عبر التاريخ البشري. مزارع السكر من أفريقيا إلى منطقة بحر الكاريبي ولويزيانا وإلى هاواي مسكونة بقصص قاسية عن الوحشية والتعذيب والاغتصاب والقتل. عندما تمرد العبيد، في كثير من الأحيان انتقموا ببشاعة من أسيادهم، فقط ليعودوا لمواجهة انتقامات أكثر ترويعًا عندما استعاد المالكون والمشرفون السيطرة. وكانت العقود خطوة أفضل من العبودية؛ ولكن السادة بذلوا جهودًا كبيرة لتخويف العمال للحفاظ على الأجور منخفضة وإسكات المنتقدين. كان العنف هو التربة التي ينبت منها السكر. وكان السبيل الوحيد لمحاربة سادة السكر – على ما يبدو – أن يبدأ العمال بالتحلّي بمزيد من الصرامة والإصرار والاستعداد لقَبول سفك الدماء بدلًا من الصبر على السادة.

بدأ غاندي يرى أن هناك طريقة للهنود المقيدين لتعزيز أنفسهم دون الحاجة إلى الاعتماد على المناجل والبنادق. لقد أدرك أن الحرية لم تأت إلا من الصعود ضد الظالمين أو الطغاة. ويمكن أيضًا العثور عليها في الذات. فحقيقة أن سادة السكر يعاملون عمالهم كممتلكات خاصة لا يعني أن على الهنود قبول هذا التعريف. في الواقع، كان الأمر عائدًا لهم لتأكيد قيمتهم الخاصة والمطالبة باحترامها. الإنسان القادر على امتلاك ذاته وكرامته الشخصية هو إنسان حر، مهما تم تدريبه للتمكن من التسلط عليه. أصبحت سنوات غاندي في جنوب أفريقيا مختبرًا؛ حيث جرب فيه كيف يمكن أن يكون الإنسان صادقًا وحُرًا. وأخيرًا أصبح على استعداد لوضع أفكاره موضع التنفيذ.

في 11 سبتمبر 1906، كان مسرح الإمبراطورية في جوهانسبرغ في جنوب أفريقيا مكتظًا

بالمندوبين الهنود، في انتظار سماع كلمة عن القانون الأسود، كان من المقرر أن يدخل القانون حيز التنفيذ في العام المقبل، ويُطلب من كل هندي رجل كان أو امرأة أو طفل فوق سن الثامنة أن يسجل وتؤخَذ بصماته. أي هندي لا يملك أوراق تسجيل يتم تغريمه أو سجنه أو ترحيله. بالنسبة للمجتمع الهندي، كانت بطاقة التسجيل تُعدُّ رمزًا مهينًا للتمييز، كان يتم التعامل معهم ليس فقط كغرباء؛ بل كمجرمين محتملين. جلس غاندي على المسرح في انتظار دوره في الكلام. عندما توقف، كان ينظر إلى الجمهور وشعر أنه يمكن قراءة توقّع أمر غريب يجب القيام به في كل وجه".

ثم دعا غاندي كل شخص في المسرح للانضمام إليه في قَسَم استثنائي، تعهد بعدم التسجيل، وعدم قبول قواعد الحكومة، حتى لو أدى ذلك إلى عقاب شديد، شدّد غاندي على أنه يجب على كل شخص أن يزن الالتزام ويتخذ قرارته الشخصية، "كل شخص يجب أن يتعهّد بهذا، ليس مقابلًا جاره، بل إلهه"، كما كان من المهم ألَّا يتم اتخاذ هذا القرار من أجل الحصول على السلطة على أي شخص سوى نفسه، ذلك أن قوة القَسَم تتحدد بما يتعهد الإنسان القيام به، وبما هو على استعداد لمواجهته كالإهانة والسجن والأشغال الشاقة والجَلد ودفع غرامة والترحيل وحتى الموت.

يومها رفع كل شخص في الجمهور يده مؤيدًا.

ربط غاندي الحشد معًا لبدء مسار جديد أطلق عليه اسم ساتياغراها، ويعني "قوة الحقيقة "، أو "الحزم" ويسمى أيضًا "قوة الحب". في حين أن هدف العنف هو هزيمة العدو، فالهدف من ساتياغراها هو إقناع الخصم أو تحويله: "يجب أن يكون الفطام من الخطأ عن طريق التحلّي بالصبر والتعاطف". الشخص الذي يعتنق ساتياغراها لن يقاتل جسديًا، بدلًا من ذلك يقاوم من خلال شجاعته الداخلية الخاصة، مع العلم أنه قد يتعرض للسجن أو الضرب، لم تكن المقاومة السلبية أو اللاعنف جديدة، كان غاندي قد قرأ لـ هنري ديفيد ثوريو، الذي دعا لهذا الخيار، ولكن لم يحدث من قبل أن كان اللاعنف مستخدمًا في حركة جماهيرية، كانت هذه نقطة تحول ملحوظة؛ فنجا غاندي من دورة العنف الذي يولد العنف؛ وتحدى العمال الفقراء أن يثبتوا للسادة الأثرياء أن هناك طريقة أفضل.

ترفض ساتياغراها فكرة أن الإنسان يمكن أن يصبح من ضمن الممتلكات حسب قوانين يضعها شخص آخر أو قوة البنادق أو التحامل. أي شخص يمكنه أن يتعهد بأن يرقى إلى أعلى مستوياته، والجهد المبذول لتحقيق هذا التعهد هو ما يميزنا كبشر. نحن نتاج القوة الروحية الخاصة بنا، وليست الأحكام التي يفرضها علينا الآخرون. في 16 أغسطس 1908، تجمع آلاف الهنود في جامع الحميدة في متنزه جوهانسبرغ، مطالبين الحكومة بإلغاء القانون الأسود، ثم خرجت الأخبار: سيظل القانون الأسود ساري المفعول، فأُضرِمتِ النار في مرجل حديد عملاق، وألقيت شهادات 2300 هندي في اللهب، وكانت هذه أول خطوة كبيرة لـ ساتياغراها. تظاهر الهنود ورفعوا لافتات تقول: "أنا لست مُلك أحد"، "أنا لست ضحيتك"، "لدي قوة وعيي". هزت هذه القوة الهادئة للمجتمع الهندي حكومة جنوب أفريقيا التي استسلمت بحلول يونيو 1914؛ فأُلغي القانون الأسود. وشدد الهنود على أنهم ليسوا مجرد عمال؛ بل هم مواطنون، وأخيرًا رضخت الحكومة.

بعد إنهاء عمله، عاد غاندي إلى الهند، حيث أصبح ساتياغراها السلاح الأكثر فاعلية في

الكفاح من أجل الاستقلال الهندي. وأعلن غاندي أيضًا في الهند رفض استخدام السلع البريطانية أو شرائها، وتمامًا كالحركة البريطانية التي ناهضت العبودية والعنصرية وأدانت من يقوم بشراء السكر المخلوط بالدم، طلب من الهنود عدم شراء السلع التي يصنعها سيدهم الاستعماري.

انتصرت قوة اللاعنف التي قادها غاندي، وفي عام 1947، أصبحت الهند أول مستعمرة بريطانية منذ الولايات المتحدة تتحرر من الحكم الأجنبي، وكما هو معلوم، فإن أسلوب اللاعنف والمقاومة السلبية انتشر في جميع أرجاء العالم، وألهم مارتن لوثر كينغ الابن، في كفاحه من أجل الحقوق المدنية في أمريكا.

هذا وتكمن أصول ساتياغراها، وهي واحدة من أكثر الأفكار ثورية في الذاكرة الحديثة، في اللحظة التي التقى فيها غاندي بالرجل المعتدى عليه بالاسومدرام، وعندما ثار عمال السكر الذين تم جلبهم لقطع قصب السكر، مطالبين بوضعهم في مكانهم الصحيح؛ حوّل السكر البشر إلى ممتلكات؛ ولكنه أيضًا دفع الناس لرفض فكرة أن يكون أي شخص مملوكًا لآخر. قتل السكر الملايين، ومع ذلك أعطى من لا صوت له وسيلة للتحدث.

سحق السكر الناس، ومع ذلك كان السبب وراء تجربة غاندي وحثه الآخرين على تحرير أنفسهم. السكر، الحلاوة التي نتلهف لها جميعًا، وحدها كانت القادرة على أن تدفع الناس إلى أن يكونوا قساة لهذه الدرجة، ومكافحين أيضًا لجميع أشكال القسوة. نقلنا شغف السكر من ذلك الزمن



في أجزاء كثيرة من العالم، يُحصد السكر الآن بوساطة الآلات، وقد تلاشى تاريخه الطويل. (بريت ديوك –بيكايون)

القديم عندما كان يتم تعريف الناس من خلال مهن أجدادهم إلى عالمنا الحديث، قادنا غاندي لنرى أن كل إنسان يستحق التقدير، وعلى الرغم من الظروف الفظيعة للعاملين في مجال السكر؛ إلا إن المزارع ما زالت موجودة في أماكن مثل الدومينيكان، وقد استبدل سكر القصب بمحليات أخرى

اكتُشفت في عصر العلوم. تركت هذه المادة أثرًا جليًّا على تاريخنا إلى الأبد.

نحن نعيش في العالم الذي صنعه السكر؛ حيث يعيش أحفاد الأفارقة في منطقة بحر الكاريبي، في البرازيل، وفي الولايات المتحدة وكندا؛ حيث يتقاسم أحفاد الهنود غير المقيدين تلك الجزر الكاريبية والمدن الأمريكية؛ حيث يشكل أطفال الصين واليابان والفلبين وكوريا سكان هاواي؛ حيث لا يزال الهايتيون يعانون من الصمت الذي استقبل ولادة أمتهم؛ حيث المساواة ليست حكرًا على الغني أو المزارع أو المشرف، أو حتى الأشخاص المحرّرين، إنها موجودة في كل واحد منا. هذه هي الحقيقة الحلوة المذاق والتي تم شراؤها مقابل دفع آلام مريرة جدًا.

السكر غيَّر العالم.

قصة تأليف هذا الكتاب

مقال قصير عن مهمة (طويلة جدًا)

للمعلمين وأمناء المكتبات والأطراف الأخرى المهتمة

ملاحظة: هذا المقال ليس موجّهًا إلى القراء الشباب؛ بل الذين يتحدونهم ويوجهونهم ويساعدونهم، إنه مقال قائم على الاقتناع الراسخ بأن الشباب أذكياء، وبالتالي فإن الفرصة التي نوفرها لهم للتفكير في مسائل كبيرة بطرق إبداعية، هي الأفضل، نحن هنا لنوضّح الخطوط العريضة للمواضيع التاريخية الكبيرة التي جاءت في بحثنا. كتابنا ليس كتابًا مدرسيًا؛ لذا لم نتمكن من التوقف لتوضيح هذه المسائل ومناقشتها، مع ذلك فنحن واثقون من أن المعلمين المبدعين سيستخدمون ما كتبناه، والمصادرَ المقترحة التي نشير إليها، كنقطة انطلاق وسيستمرون في استكشاف المزيد في صفوفهم. نحن نستخدم هذا المقال أيضًا لوضع الخطوط العريضة لبعض إستراتيجيات البحث والكتابة التي استخدمناها، والتي قد تكون نموذجًا مفيدًا للطلاب.

يرى أي شخص بالغ أن أنواع الأسئلة التي نناقشها في هذا المقال خارج نطاق معرفة طلاب المدارس المتوسطة والثانوية يحتاج فقط للاطلاع على بعض المقالات الفائزة بجائزة يوم التاريخ الوطني والتي كتبها طلاب من الصف السابع، وهي متاحة في:

www.historycooperative.org/journals/ht/40.1.dabel.html

أو تلك التي كتبها طلاب المدارس الثانوية ونشرت في استعراض كونكورد،

.www.tcr.org/tcr/index.htm

كلما زدنا من تحفيز الشباب فكريًا، ارتفع وعيهم.

عندما بدأنا القراءة عن السكر، سرعان ما أدركنا أن قصة منتج واحد أشارت مباشرة إلى سؤالين تاريخيين رئيسين؛ أولهما: ما علاقة السكر بالعبودية والنضال من أجل الحرية؟ وينطوي هذا على الثورات الأمريكية والفرنسية والهاييتية والحركات الملغية في تلك البلدان وكذلك في إنجلترا. وآخرهما: كيف تورّط السكر والاستعباد في ولادة الثورة الصناعية في إنجلترا؟

كما سترى في الملاحظات، قام المؤرخون بمناقشة هذه الأسئلة لعقود. مع ذلك، غالبًا ما يقدم

للطلاب، وخاصة في المدارس الثانوية، وحدات منفصلة تمامًا، على سبيل المثال، العبودية في الولايات المتحدة، والتنوير وإعلان الاستقلال، والثورة الفرنسية، والثورة الصناعية في إنجلترا، ومحاربة العنصرية والحرب الأهلية، وكأن هذه الموضوعات التاريخية الحاسمة لا ترتبط ارتباطًا وثيقًا. إذا كان كتابنا هذا لا يحقق شيئًا أكثر من تشجيع المعلمين على تعليم موضوع العبودية في أمريكا الشمالية كجزء صغير من نظام أكبر بكثير يركز في المقام الأول على منطقة بحر الكاريبي والبرازيل، مع كل ما ينطوي على فهم العبودية، التاريخ الأمريكي الأفريقي، والعِرق، وكون الولايات المتحدة جزءًا من عالم أكبر، سنكون نجحنا.

كيف بإمكان نظرة واضحة عن السكر والعبودية أن تُغيِّر الطريقة التي نرى بها أفكار الحرية واختراع أساليب جديدة للعمل وأنواع جديدة من الآلات؟ بشكل عام، يفيد النقاش الأكاديمي بأن: قصة السكر قاتمة ووحشية. كلما عرف بعض المؤرخين أكثر عن هذا التاريخ المظلم، فقدوا الثقة في أفكار الحرية والحرية التي أعرب عنها أصحاب المزارع الذين يمتلكون العبيد، وتأكدوا أن الثورة الصناعية هي نتاج السياط والسلاسل، وليس الاختراعات والعلوم. كشفت عذاب العبيد وأرباح السادة كل الأكاذيب؛ بل وحتى السعي لإلغاء العبودية نفسه كان باعتقادهم بمثابة "خدمة لمصالح" فئة جديدة من الرجال الأثرياء. يعتقد مؤرخون آخرون أنه حتى الناس الذين استفادوا من السكر والعبيد كان يمكن أن يكون ضميرهم متقلقلًا ومضطربًا. إن إعادة البحث في موضوع العبودية يجبر كل واحد منا على أن يقرر ما إذا كان يريد النظر إلى الماضي من خلال عيون المشككين أو المثاليين. هذه هي القضايا المذهلة التي تأخذنا إلى لب الموضوع، إلى نظرتنا لولادة العصر الحديث، ونرى أنها تطرح أسئلة مثالية على الطلاب الأذكياء.

سوف يتعرف المعلمون على أفضل الطرق لتأطير هذه القضايا لطلابهم؛ لكنِ المخطط الأساس واضح؛ فعندما نناقش موضوع الاستعباد والمثل العليا للمساواة في التاريخ الأمريكي تتحول المناقشة سريعًا لقضية شخصية؛ ولكن التفاعل بين المبادئ المجيدة والاسترقاق الوحشي يبدو مختلفًا عندما نتأمل النطاق الحقيقي لعبودية السكر واتساع عصر الثورات السياسية والصناعية.

بدلًا من التحدث عن الأفراد، نحاول أن نفهم أعمق محركات السلوك البشري وأهمها؛ هل يدفعنا جشعنا؟ نظامنا الاقتصادي؟ مُثُلنا؟ التغيير التكنولوجي؟ هل هو شيء غامض ويصعب تعريفه؟ من نحن؟ ما الذي يجعلنا قادرين على أن نكون متجردين من إنسانيتنا؟ ما الذي يمكننا فعله لكسر تلك السلاسل والعمل على إنسانيتنا المشتركة؟ لا يمكن لأي استجواب تاريخي أن يكون أكثر مكافأة للطلاب والمعلمين على حد سواء.

استغرق البحث وكتابة هذا الكتاب وقتًا أطول بكثير مما كنا (وفرجينيا باكلي، محررتنا التي كانت جدًا صبورة معنا) نتصور. كما واكتشفنا أن الكتابة عن السكر تتطلب جهودًا واسعة النطاق؛ فكان علينا أولًا أن نستمر في البحث، ذلك أن الموضوعات التي نوقشت في هذا الكتاب وقعت على مدى آلاف السنين وفي معظم زوايا هذا الكوكب، فكيف كنا نبحث عنها؟ كانت إستراتيجيتنا أن نبدأ بالكتب التي سبق أن قامت بالأعمال الأساسية، بعد قراءة ما يسمى بالأعمال الثانوية – وهي الكتب التي تتناول عبودية السكر وليست الوثائق أو المصادر الأولية والفعلية لتاريخ السكر –، وأصبحنا بعد

ذلك على استعداد للانتقال إلى دراسات أكثر تخصصًا؛ حيث أردنا أن نبرز حياة عمال السكر قدر الإمكان، وقد أخذنا البحث عن هذه الأصوات إلى محاضِر المقابلات وغيرها من المواد المحفوظة؛ ولكننا لم نبحث عن تلك الأصوات حتى فهمنا أين يجب وضعها في السرد الأكبر.

يُهرع معظم الطلاب عند تكليفهم بإجراء بحث معين إلى محركات البحث؛ لكننا لم نفعل ذلك، بدأنا بقراءة الكتب التي منحتنا شعورًا أساسيًا بالقصة؛ ثم استخدمنا الإنترنت لاستكشاف المزيد؛ وليس سبب ذلك عدم الثقة في الإنترنت؛ ولكن لأن محرك البحث يقدم لك مجموعة عشوائية من المواقع، لم نر أي سبب للبدء بطريقة عشوائية ومتسرّعة، أردنا أن يكون الإنترنت أداة تسترشد بمعارفنا ومصالحنا، وليس فيضانًا من المواضيع التي يجب علينا فرزها. ومع ذلك، لم يكن فهم هذه القضايا الكبيرة سوى نصف التحدي الذي واجهنا؛ فكانت مهمتنا الثانية الضغط وإيجاد وسيلة للكتابة عن هذه القصة الشاسعة بحيث لا تظهر كمجرد مجموعة من الحقائق أو مجلّد لا نهاية له. واصلنا المراجعة والتنقيح للوصول إلى جوهر القصة، بحيث يضم معاناة البشر قدر الإمكان، وليس فقط القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

بوجود اثنين من المؤلفين، زوج من العيون، وأربعة أيدٍ، قام مارك بمعظم البحوث الأساسية، واستخدمت مارينا موهبتها الروائية لتعديل النص وتركيزه، ثم استعانت بمنحها الدراسية وأبحاثها الخاصة بالهنود، ثم قمنا سويًا بعملية التنقيح للتأكد من تماسك واندماج النمطين. نحن مدينون للدكتورة راشيل ماتسون والدكتور تيري رويتر من موقع www.becominghistorians.org، ومديري مشروع تدريس أمريكا من خلال إدارة جامعة نيويورك للتعلّم والتعليم. من خلال راشيل وتيري، ولصيفين متتاليين، تمكنّا من تقديم عملنا للهيئة الدراسية للمدارس الابتدائية في مدينة نيويورك.

لم يكن العمل معهم يقدر بثمن بالنسبة لنا، كما ساعدنا على العثور على جوهر قصتنا وعلمتنا الأسلوب الأمثل للتواصل مع كل من الطلاب والبالغين الذين يعملون معهم. كان العمل الصيفي هذا اختبارَنا الميداني. بالرغم من أن الطلاب في الصف ليسوا مشاركين في التأليف، وليسوا من سيتم الاستماع لهم في قاعة ما؛ إلا إنهم يمكنهم تتبع خطوات العمل نفسه؛ بدءًا بالذهاب بعيدًا للحصول على كل المعلومات الممكنة، ثم العثور على الأفراد والقصص والمواضيع التي تتواصل بشكل مباشر مع القراء. من البداية تصورنا أن تكون صور هذا الكتاب مهمة مثل الكلمات؛ ولهذا نحن مدينون بامتنان كبير للمصمم الرائع تريش بارسيل لجعل هذه الرؤية حقيقة، ولـ ريني كافيرو، وللفريق بأكمله في كلاريون وفي بوسطن، بما في ذلك كيري مارتن ودانيال نايري وكريستين كيتنر، لتقاسم شغفنا لجعل كل صفحة مثالية.

شكر وتقدير

كنا محظوظين جدًا لأننا حصلنا في وقت مبكر من بحثنا على فرصة للقاء الباحث الذي يُعد كتابه هو المرجع الأول لجميع الطلاب المهتمين بموضوع السكر في التاريخ. الدكتور سيدني مينتز مؤلف "الحلاوة والسلطة" عام 1985، وعالم أنثروبولوجيا، لم يكتفِ بدراسة حقائق تاريخ السكر؛ بل وكيف غيّر السكر حياة أولئك الذين عملوا في إنتاجه وبيعه وتناوله. من الضروري أن يهتم أي مؤرخ بما يربط التغيير الاجتماعي بالتحولات في النظم الاقتصادية، وهو ما فعله مينتز؛ حيث قاد الطريق للقيام بذلك في كتاب ثاقب ومحقِّق ومقنع.

تعرفنا أيضًا في تلك الرحلة الأولية نفسها على الدكتورة فرانكلين أودو، مديرة برنامج آسيا والمحيط الهادئ الأمريكي في مؤسسة سميث سونيان، ومطّلعة ومشرفة على تاريخ هاواي في هذا الجزء من قصة السكر، لم تساعدنا فقط بتوجيهنا في البداية؛ لكنها قامت بمراجعة المخطوطة بأكملها في النهاية، وساعدتنا برؤيتها، وعندما اقتربنا من إتمام عملنا، وقعنا على كتاب (من الآن فصاعدًا) من تأليف الدكتور بول فريدمان ووجدنا أنه كتاب ممتع ومفيد على حد سواء. استغرق الدكتور فريدمان وطلاب الدراسات العليا ييل آدم فرانكلين ليون وأزيلينا جابوليت فيرتشيري وقتًا للرد على أسئلتنا، راجع الدكتور فريدمان الكتاب بأكمله وأكرمنا بالاستفادة من معرفته الواسعة. كما نتوجه بالشكر أيضًا لأمناء المكتبات كريستينا ريكلمي من جامعة ولاية لويزيانا وإريش كيس من جامعة ولاية فلوريدا، اللذين ساعدانا على العثور على المواد الأرشيفية، والأستاذ ريك هالبرن، من كلية تورنتو، على إفادتنا بأفكاره حول السكر في كل من لويزيانا وجنوب أفريقيا.

كما أفادنا الدكتور نورهان أتاسوي والبعثة الثقافية التركية في واشنطن العاصمة بشكل خاص في البحث عن صور نحت السكر في العصر العثماني. ونشعر بالامتنان كذلك للدكتور دوغلاس هيرمان لتوجيهنا إلى البروفيسور ديفيد بورني، الذي أرسل لنا ورقة شارك في تأليفها حول استخدام الفحم الذي تم العثور عليه في تسعة مواقع في جزيرة كاواي لتأريخ وصول الإنسان إلى جزر هاواي.

كان البروفيسور بن لابيدوس دليلًا مفيدًا للموسيقى التي أنتجتها العبودية، ومع امتناننا لجميع أفكار هؤلاء العلماء، كتابنا هذا، وكل شيء تم تضمينه فيه، أو تم الاستغناء عنه، هو نتاج قراراتنا. هناك كتابان يستهدفان البالغين مثلنا، يستخدمان السكر كطريق للتوغل من خلاله في تاريخ العالم: بيتر ماسينيس (الحلاوة المرّة)؛ وإليزابيث أبوت، السكر: تاريخ حلو ومرير. وجدنا في ماسينيس مصدرًا مفيدًا للتواريخ والقصص؛ ولكنها مبعثرة إلى حد ما ومحبطة، وتعرفنا على بحث أبوت من الدكتور

هالبرن؛ ولكن لم نر الكتاب فعليًا إلا بعد الانتهاء من كتابنا. سيجد المعلمون وأولياء الأمور والطلاب الراغبون في معرفة المزيد عن الموضوعات التي نغطيها الكثير للاطلاع عليه في كتاب أبوت.

بدأت مارينا بحثها بهذه الدراسة التي قام بها هيو تينكر: نظام جديد من العبودية: تصدير العمالة الهندية إلى الخارج، 1830–1920. ومنذ ذلك الحين، قام عدد من الباحثين الآخرين بتجسيد القصة؛ بل وأثاروا وناقشوا الفكرة القائلة بأن البغاء هو شكل آخر من أشكال العبودية. بعض العلماء الذين تطرقت أعمالهم لذلك هم والتون لوك لاي في السكر الكاريبي: المهاجرون الصينيون والهنود إلى جزر الهند الغربية، 1838–1918 (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1995)؛ وباسيديو مانغرو، تاريخ المقاومة الهندية الشرقية في مزارع غيانا: 1869–1948، ومارينا كارتر، التي قامت بعمل كبير حول العمال الهنود في موريشيوس، على سبيل المثال: تجارب المهاجرين الهنود في الإمبراطورية البريطانية (لندن: مطبعة جامعة ليستر، 1996).

ككاتبة كانت مارينا مدفوعة نحو الدراسات التي نقبت عن الأصوات المفقودة. وبالنسبة للقارئ والمعلم المتحمس، فهذه طريقة ممتازة للاطلاع على الوثائق الأساسية والاستماع لجميع الأشخاص المشاركين في المجتمع. هذه الدراسات هي كما يأتي: مأساة ماهاراني: روايات عن الرحلة من الهند إلى منطقة بحر الكاريبي لـ فيرين شيبيرد (كينغستون، جامايكا: جامعة مطبعة جزر الهند الغربية، 2002)؛ كليم سيشاران بيشو: كولي في غويانا البريطانية، 1894–1901 (كينغستون، جامايكا، 1999)، نور كومار مهابير (البكاء الساكن). كما تقدم السيرة الذاتية للمهندس ك. غاندي (قصة تجاربي مع الحقيقة) لمحة عن عمله في المجتمع الهندي في جنوب أفريقيا.

كانت بدايتنا مع مينتز، وماسينيس، ومواقع الإنترنت المختلفة، حيث قدموا لنا نقطة الارتكاز الأساسية للقصة التي أردنا سردها؛ ولكن ذلك لم يكن سوى السطح الخارجي، فكان علينا لسماع أصوات عمّال السكر أن نسبح في المياه العميقة، والدراسات الأكاديمية للسكر، والعبودية. بعد القيام بهذا البحث، يمكننا أن نقول لكم إنه إذا وجدتم الموضوعات في هذا الكتاب مثيرة للاهتمام، هناك في الخارج ثروة من المواد التي تنتظر استكشافكم لها. نأمل أن يقدم لكم هذا الكتاب ما قدمه مينتز لنا: توفير الأساس الذي يسمح لك أن تكون فضوليًا بذكاء.

عن المؤلفان

مارك أرونسون مؤلف، وأستاذ، ومتحدث، ومحرر، وناشر يؤمن بذكاء الشباب وقوة عاطفته وقدرته على الانخراط في تطبيق الأفكار المثيرة للاهتمام بطرق مبتكرة، وعليه يؤلف الكتب التي تؤكد هذا الاعتقاد. يرى مارك أن مهمته هي إلهام الشباب لطرح الأسئلة، وتأمل ما يحيط بهم من القصص التي يخبرنا بها العالم، وما يكمن وراءها وداخلها، سواء كان ذلك يعني أن يكون هو العين الفاحصة لتلك القصص والقرائن التي خلفتها، أو يكون المراسِل الذي ينقل حقيقة العالم الحديث. لمعرفة المزيد، قم بزيارة marcaronson.com.

مارينا بودوس مؤلفة حائزة على جوائز عدة في مجال الكتب الخيالية والواقعية. وصفت صحيفة نيويورك تايمز روايتها "أخبرنا أننا وصلنا إلى الوطن" بأنها "رواية راقية ذكية ومفعمة بالعاطفة". كما فازت روايتها الأسبق "لا تَسَلني" بالمركز الأول في جائزة جيمس كوك لكتب المراهقين، أفضل كتاب لفئة المراهقين في مكتبة نيويورك العامة، والمكتبة العامة في شيكاغو، وحصلت على العديد من الأوسمة الأخرى، بما في ذلك جائزة ALA، ويتم تدريسها. كما يجري العمل حاليًا على تحويلها إلى فيلم سينمائي. لمعرفة المزيد، يرجى زيارة marinabudhos.com.

يعيش الزوجان حاليًا في ميبل وود، نيو جيرسي، مع ابنيهما.